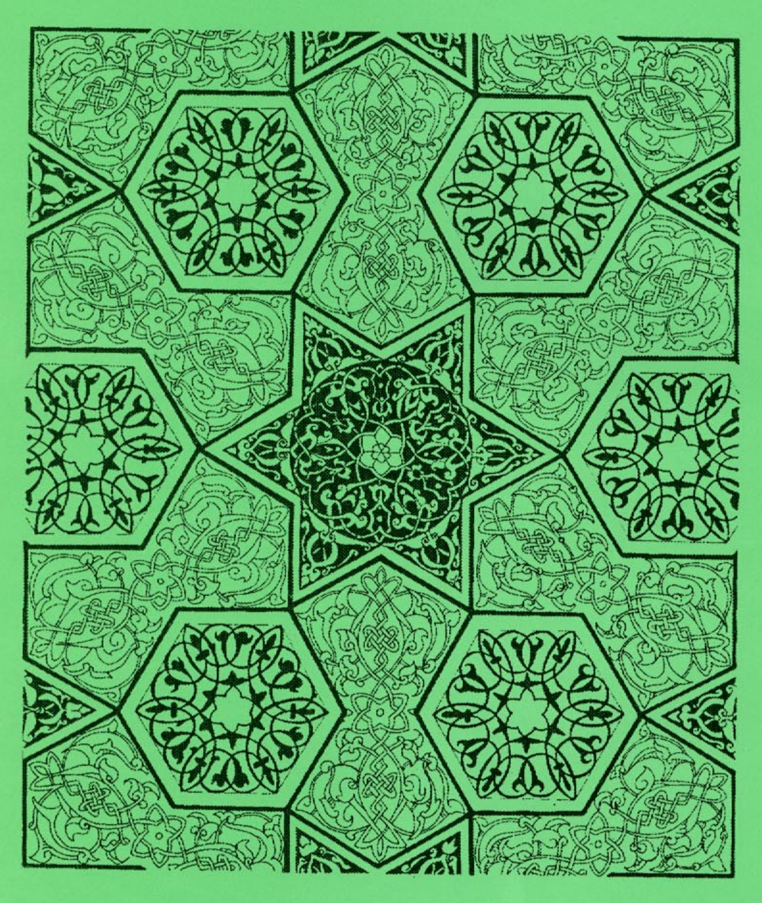
ابن الداية
د بن يوسف الكاتب
— ٣٤٠ هـ

كتاب المكافأة

وحسن العقبى



حرره
دكتور علي محمد عمر

الناشر
مكتبة الخانجي

ابن الداية
أحمد بن يوسف الكاتب
— ٣٤٠ هـ

كتاب المكافأة
وحسن العقبى

بسم الله الرحمن الرحيم

أخبرنا أبو محمد عبد الله الفَرْغَانيّ ، قراءةً منّى عليه ، قال : أخبرنا أبو جعفر أحمدُ بن يوسف الكاتب (١) ، قراءةً منّى عليه ، قال :

شَدّد الله فِكْرَك ، وأَحْسنَ أمْرَك ، وكَفَاك مُهِمَّك

إنَّ أَشدَّ على المُمْتَحَنِ من مِحْنَتِه ، عُدُولُه فى سَعْيه عن مَصْلحته ، وتَنَكُّبُه الصوابَ فى بُغْيَته ، ولكلِّ وِجهة من الجَدْوى مأتًى تُسْتَنْزَل به عوائدُها ، ويقرُبُ معه ما ٱستصَعَب منها ، يستثيره حُسْن الرَّوِية ، [ويَهْدى إليه] (٢) صالحُ التَّوْفيق .

وقد رأيتُكَ لاتَزيد مَن رَغِبْتَ إليه – فيما تَحْدُوهُ على بِرّك ، وتحثُّهُ لِمَا أغْفل من أمْرك – على نَصٍّ (٣) مكارِم مَنْ سلَفَ . وتَرى أنَّه يَهَشُّ إلى مُساجَلتهم ، فلا تَبْلغ فى هذا أَكثرَ من إحرازِ الفضيلة للمرغوب إليه ، ولا تُوجِد فى الراغب فضيلةً تحثُّه على شَفِيع قَصْده (٤) . ولو عدلتَ عن مكارِم من رُغِبَ إليه ، إلى حُسْن مُكافأة من أُنْعِمَ عليه ، لكانت لك ذرائعُ يَمُتُّ (٥) بها الرَّاغب ، تُوجِدُ المرغوبَ إليه سبيلاً إلى الإنعام ،وتَفْسَح أمَلَه فى مُوَاتَرة (٦) الإحسان .

ولم يُؤْتَ الجودُ من مَأْتًى هو أغْمَض من مُغادرةِ حسنِ المكافأة . ولو أنعمتَ النَّظرَ فيها : لَوَجَدْتَها أقْوَى الأسباب فى مَتْع القاصد ، وحيرةِ الطالب . ولو كانت تُوجَد مع كُلِّ فعل ٱسْتحقَّها ، لآثَرَ الناسُ قاصِدِيهم على أنفُسِهم ، ولَجَرَوْا على السُّنن المأثورةِ عنهم .

---

(١) هو أحمد بن أبى يعقوب .

(٢) كذا فى ش ، وفى ج ، ع : « ويقرّب إليه » .

(٣) نصّ الشئ ، ينصه : رفعه وأظهره (ش) .

(٤) شفيع قصده : هو المكافأة والشكر (ش) .

(٥) مت إليه ، يمتّ : توسل إليه (ش) .

(٦) المواترة : المتابعة (ش) .

[وقد كتبتُ لك] (١) فى هذه الرسالة أخبارًا - فى المكافأة على الحَسَن والقَبِيح ، تُنْعِم (٢) الخاطرَ ، وتقرِّب بُغْية الراغب - مما سَمِعناه ممن تَقَدَّمنا ، وشاهدناه بعَصْرِنا ، وبالله التوفيق .

* * *

---

(١) كذا فى ش ، وفى ج ، ع : « وإنى أثبت » .

(٢) ع : « تعمّ » ، والمثبت فى ج ، ش . وتنعم الخاطر : تريح النفس وتُمتعها (ج) .

١ - المكافأة على الحسن

خالد القسرى وديوانبانه

١ - حدثنى أبو محمد يحيى بن الفضل ، عن عبد العزيز بن خالد الأموى ، عن أبيه خالد ، قال : أخبرنى محارب بن سَلَمة كاتبُ خالد القَسْرىِّ (١) :

« أَنَّ دِيَوانْبَان (٢) خالدٍ أخْرج من دِيوانه وَثيقةً على بعض المتضَمِّنين (٣) فدفعها إليه بِبِرٍّ تَعَجَّله منه لله فدعا به خالدٌ وأمر بقطْع يده بين يديه ، فقال له : « اَستَبْقِنى ، أصلحَ اللهُ الأمير ! » ، فقال : « وما يكونُ منْ مثلِك ؟ » ، فقال له : « إنْ لم يُقدَّرْ فى الزمان رِفعْتى إلى منزلتك ، فلا تأْمَنْه على حَطِّك إلى مَنْزلتى ، فيكونُ منِّى ما تَحْمَدُه ! » ، فقال خالد : « أطلِقُوه فِفيه عظيمٌ ! » .

فلم يمضِ حَوْلٌ حتى ورَدَ العراقَ يُوسفُ (٤) بن عُمَر متولِّيًا لعملِه فحبسه فى حُجْرة من ديوانه ، ووكَّل بباب الحُجْرة جماعةً . فتدسَّسَ الدِّيوَانْبَانُ حتى دخَل فى جُمْلتهم ، وتلطَّف للجماعة حتى رَأَسَها بالخِبْرة وحُسْن المداخلة . وتَحرَّم (٥) خالدٌ طعامَ يوسف بن عمر - خوفًا من أن يكون مسمومًا - فَطوَى (٦) .

---

(١) هو خالد بن عبد الله .

(٢) كذا فى ج ، وفى ش ، ع : « ديوانيان » بالياء .

وديوانبان - بالباء الموحدة - صاحب الديوان وحافظه . وكلمة « بان » بالفارسية معناها : القائم على الشئ المشرف عليه (ج) ، وانظر لذلك أيضا : الجواليقى : المعرب ص ١٨٩) .

(٣) المتضمن : الكفيل الذى يتحمل بأموال الضياع وخراجها وأدائها لبيت المال (ش) .

(٤) هو أبو يعقوب يوسف بن عمر الثقفى ، ولى اليمن لهشام بن عبد الملك سنة ١٠٦ ، ثم تولى العراق سنة ١٢٠ بعد خالد بن عبد الله القسرى ، ومات فى السجن سنة ١٢٦ . ابن خلكان ج ٧ ص ١٠١ .

(٥) تحرم الطعام أمسك عنه فلم يقربه (ش) .

(٦) طوى : تعمد أن لا يأكل ولايشرب (ش) .

وتأمَّل من [١] ذلك الديوانبانُ ، فجعل فى مِنْديلٍ نظيف مايكُفُّ جَوْعتَه من طعامٍ قد تأنَّق فيه ، ودَخل إليه كالمتجسِّس عن حاله ، فقال له : « أنا الدّيوانبانُ الذى عَفوْت عنه ، وهذا طعامٌ تأمَنُ فيه ماتخافُه من غِرَّةٍ [٢] » . فأقام أيامًا يأتيه من طرَائف الأطعمةِ والفواكه ما ينْسَى به وَحْشته ، ويكُفُّ فاقَتَه ، ثم دخل إليه فقال : « ليس هذا الذى أفعلُه مقدارَ ما يقتَضِيه إحسانُك إلىَّ ؛ وقد ٱستأجرت الدّارَ التى فى هذه الحَجْرَة [٣] ، وأحضرتُ قومًا أثِقُ بهم من حُذَّاق النَّقابين ، حتى نَقَبْتُ سَرَبًا [٤] إلى موضِعك ، ولم يبق إلّا أن تركُضَ بعض بلاط هذا المجلس ركْضةً فتُفْضِىَ إلى السَّرَب [٥] .

وقد أعددْتُ فى الدَّار نَجِيبَيْن [٦] أحدُهما لك والآخرُ لى » .

فلمَّا صَلَّى الديوانبانُ العصرَ أغلقَ البابَ ، ومضَى إلى الموضع المُكْتَرَى [٧] ، وركضَ خالدٌ الموضعَ وخرج من السَّرَب ، وركبا نجيبيهما وحَثَّا المسيرَ . فما فُطِن بخالدٍ إلَّا فى غدِ ذلك اليوم ، فطلبته الخيلُ والنُّجب ففاتَها . ولم يزلْ يُوضِع [٨] فى البلاد حتى لحق مَسْلمَة بن عبد الملك [٩] ، فَشَفَع له إلى هشام [١٠] وردَّه إلى عمله .

---

(١) كذا فى ش ، ع . وفى ج « وتأمل فى ذلك » .

(٢) كذا فى ش ، وفى ج ، ع : « فى غرة » .

(٣) الحجرة : الناحية (ش) .

(٤) السرب : الطريق الخفى ، السرداب (ش) .

(٥) ركض الشئ برجله : ضربه (ش) .

(٦) النجيب : الخفيف السريع من الإبل ، والجمع نجب (ش) .

(٧) اكترى الموضع : استأجره . (ش) .

(٨) أوضع فى الأرض : أسرع . (ش) .

(٩) هو مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم : أمير قائد ، من أبطال عصره ، له فتوحات مشهورة ، توفى سنة ١٢٠ هـ . الذهبى : دول الإسلام ج ١ ص ٨٣

(١٠) هو هشام بن عبد الملك بن مروان الأموى الدمشقى ، ولد سنة ٥٤ ، وخلافته ٢٠ عاما ، وكان ذا رأى ودهاء وحزم ، توفى سنة ١٢٥ هـ . الذهبى : دول الإسلام ج ٢ ص ٨٥ .

ابن مرزوق
ومتضمن

٢ – وحدثنى هارون بن مَلُّول [١] ، قال :

« كنت عند أحمد بن خالد الصّريفىّ – وهو يتولّى الخراج بمصر ، ووجُوهها عندَه ، وقد أكبَّ على حاصلِ ما استُخْرج فى أمسِه ، وهو يقابل به ثَبَت المصادرة [٢] – ، فقال لصاحب حَمَالته [٣] : « ما أرى ٱسمَ فلان المتضمّن فى هذا الحاصل ، وقد صادَرنا بالأمس على خمس مائة دينار ؟ » فقال : « ماصَحَّ له شىء ! » فقال : ٱبَعثْ إليه من يسحَبُه صاغرًا حتى يَحْمِلَه على خُطّة المطالبة [٤] » ، فقال له رجل من المتضمّنين يُعْرف بما شاء الله بن مرزوق : « الخمسُ المائة – أيَّدَك الله – تصحُّ لهذا الرجل فى هذه العشيّة إن شاء الله ، إن أُعْفى ممَّا قد أمرتَ به فيه » ، فقال : « هى عليك ؟ » ، فقال : « نعم ! » ، فتقدَّم إلى [٥] صاحبِ الحَمالة ألّا يَعْرِضَ له . فالتفتَ إلىَّ ماشاء اللّٰه فقال : « تعرفُ هذا الرجل ؟ » ، فقلت : « نعم ! ومن العجب ألّا تَعْرِفه ! » ، فقال : « يا أخى أمَر فى رجل يجرِى مَجْرانا فى مَعاشِنا بما لم أُطِقْ واللّٰه احتماله ، وعندى ضِعْف ماطُولِب به ، وكانت صِيانَتُه أحبَّ إلىَّ مما حَوَيْتُه . فإذا لَقِيتَه فعرِّفه أنّى أُورِد المالَ عنه لئلا يُورد المالُ مُضَعّفًا » .

وٱنصرفتُ من مجلس أحمد بن خالد ، فلقيتُ الرجلَ فى طريقى ، وهو مجدُودٌ [٦] ، فسألته عن خبَره وأخبرته الخبر ، فقال : « يا أخى ! ومافى هذا من

---

(١) كان من كبار التجار وأصحاب الأموال فى عهد أحمد بن طولون . وروى عنه المؤلف فى هذا الكتاب عدة أخبار . (ج) .

(٢) الثبت : الفهرس أو الدفتر (أو ما نسميه الآن الكشف) صادرت فلانا من حسابى على كذا ، وفارقته ، إذا قطعت الأمر بينك وبينه على أمر وقع عليه اتفاقكما (ش) .

(٣) صاحب الحمالة : من أعمال بيت المال ، كأنها وظيفة القائم بحساب المتضمنين . (ش) .

(٤) هذه العبارة كثيرة الورود فى كتب هذا العصر ، ويراد بها التعذيب للمطالبة ، على طريقهم فى ذلك . (ش) .

(٥) تقدم إلى فلان بكذا : أمره به . (ش) .

(٦) كذا فى ع ، ش وفسره صاحب نسخة (ع) بالمجدود ، وصاحب نسخة (ش) بصاحب الحظ والجد . وفى ج : « محدود » وفسره بقوله : « المحدود : من سدّ عنه الرزق ومنع الخير » .

الفرج ؟ إنما انتقلتُ من غَمٍّ إلى رِقٍّ ! ومتى أَقْضى إلى هذا الرجل إحسانَه إلىَّ ؟ والله لوَدِدْت أنَّ أمْرَ السلطان نفَذَ فىَّ ، ولم أتحمّل هذه العارفة منه [١] ! » .

قال أحمد بن يوسف ، فقال لى هارون : « وحضرتُ [مَوْتَ] ماشاء الله بن مرزوق بعدَ هذا بأربع سنين - فى الوقت الذى تُوفِّى - فاتّفق أنْ كان إلى جانبى رجلٌ قد ألقى بعضَ رِدائه على وجهه ، وهو يعُجُّ [٢] بالبكاءِ والشهيق ، ثم كَشَف وجْهَه فكان الرجُلَ الذى أوْرَد ماشاء الله عنه الخمسَ مائة الدينار . فقال : « مَنِ الْوَصِىُّ من جماعتكم » ، فقال له الوصىُّ : « هأنذا ! » ، فقال : « عندى لهذا الرجل رحمه الله ألفَا دينارٍ وخمسُ مائة دينار ، فقلت له : « حَدثت بينكما مُعَاملة بعدى ؟ » ، فقال : « لا والله ، ولكنها الخمس مائة الدينار ، صرتُ بها إليه عند تَيَسُّرها فقال : « وما [أبْغِى بها] [٣] ؟ تكون عندَك إلى أوَانِ حاجتى إليها » . فسألته [الإذن] فى شَغْلها . فقال : « هو مالُكَ ، اعمَلْ به ماشِئْتَ » فلم تزل تَنْمِى وتَزِيد حتى بلغتْ هذا المقدارَ . فقال هارون : « ووجَدْتُ ماخلَّفه ماشاء الله لبناتٍ كُنَّ معه شيئًا نَزْرًا ، فجبَرَهُنّ الله بذلك المال » .

* * *

ابن دعيم وأعرابى

٣ - وحدثنى أحمد بن دُعَيْم [٤] - وكان من خاصةِ قُوّاد أحمد بن طُولون - بعدَ أن ترك الديوانَ ، وحَسُنَ انقطاعُه إلى الله ، قال : « قلّدَنى أحمدُ بن طُولون الصَّعيدَ الأوسط . وخرج عليه سَوّارٌ أبو عبد الرحمن العُمَرىّ [٥] ، فكتب إلىّ يستخبرنى عن حاله ، فأعلمته ضَعْفَ يدِه ، وانتشارَ أمره لِقلَّة المال . وقبضتُ على رئيسٍ من الأعراب اتهَمْتُه بمكاتبتِه وأنْهَيت خبرَه إليه . فكتب إلىّ أحمد بن

---

(١) العارفة : المعروف . (ش) .

(٢) عجّ يعج : رفع صوته بالبكاء أو الدعاء (ش) .

(٣) كذا فى ش ، وفى ج ، ع : « أعمل بها » .

(٤) قائد من قواد أحمد بن طولون - كان أحد من روى عنهم ابن الداية سيرة ابن طولون . وقد ترك الديوان بعد موت ابن طولون وتزهد . (ج) .

(٥) انظر فى أبى عبد الرحمن العمرى : اليعقوبى ج ٢ ص ٥٠٩ .

طولون : يأمُرُنى بحَمْل الأعرابىّ ، [وجَمْع] [١] ما قَدَرتُ عليه من النُّجُب ، والشُّخوصِ إليه ؛ ليقِفَ من مُشافهتى على مالا تبلُغه المكاتبة . فامتثلتُ أمرَه .

فما سِرْتُ مَرْحلة [٢] حتى لَحِقَ بى وُجوه تُجّار العَمَل ، ومعهم شابٌّ أعرابى ، وقالوا لى : « جئناكَ فى أمر هذا الأعرابىِّ المحمول ، فإنَّ معنا من يَبْذُل فى إطلاقه خمسَ مائة دينار » ؛ فقلت لهم : « قد أنهيتُ أمرَه إلى الأمير ! » ؛ فقال الأعرابىّ الذى معهم : « فَخُذْ الخمسَ مائة على أن تجعلنى مكانَه » .؛ قلت : « أفعلُ » . فأحضرت الأعرابىَّ ؛ وكان من عشيرتى ؛ فقلت له : « والله لقد كنتُ مغمومًا بك حتى سرَّنى خلاصُك ! » ؛ قال : « بماذا تخلَّصْتُ ؟ » فقلت : « بَذَل لى رجلٌ خمس مائة دينارٍ على أن يكون بمكانك وأُطْلِقُك ! » .

فقال : « ومن هذا الرجُل ؟ » ؛ فأحضرْته إيَّاه . فلمَّا رآه قال : « اُمض لشأْنك » ، ثم التفت إلىّ فقال : « يَحْسُنُ بشَيخٍ مِثلى أن يَترَّبح فى المعروف ؟ هذا رجلٌ لقيتُه وقد أكبَّتْ عليه خيلٌ لتسلُبَه ثيابَه وماكان معه ، ففرّقْتُها عنه حتى تَخلَّصَ ، فرامَ أن يُخَلصنى بحصوله فى موضع لا يخرُج منه أُخْرَى الليالى ، و[هو] غرمٌ ثقيل على مثله . والله هذا مما لا أقبله ولا أرْكَنُ إليه » ، فقلت له : « اُنصرف فى حفظ الله فقد رَضِى الرجُل » ، فقال : « والله لئن أمضَيْت هذا لألْحَقَنّك ، ولأُخْبِرَنَّ الأمير بِصَنِيعك » ، فتوقفتُ ، وبكى الأعرابىُّ فقال : « إذا كان مَحْبِسُ الأميرِ على ماتَصِف ، وليس ترجُو خلاصًا منه ؛ فما أعمل فى عارِفتك عندى ؟ وأنا أنْشُدك الله لَما قَبلْت مِنِّى مابذلته وأعظَمَ منه ؛ وأزلتَ هذه العارفة عن عُنُقى ؛ فإنَّ عارًا ونقيصةً على الكريم أن يموتَ وعليه دَيْن من ديون المعروف » ؛ فقال له : « إذا رأيت رجلا أحاطتْ به خيلٌ تُرِيغ [٣] سَلْبَه فذُدْتَها عنه ؛ فقد

(١) كذا فى ش . وفى ج ، ع : « وقيادة » وفى سيرة ابن طولون للبلوى ص ٢٣١ : « وابتياع ماقدرت عليه من النجب » .

(٢) ع : « رحلة » والمثبت فى ج ، ش . وفى سيرة أحمد بن طولون ص ٢٣١ : « فما سرت إلا مرحلة » .

(٣) تريغ : تريد وتحتال (ش) .

كافأت عارفتى ؛ أنصرفُ مصاحَبًا » [١] . فعرض عليه مامعه من المال ؛ فقال : « مابى إليه حاجةٌ ! » ، فأكَبَّ على رأسِه ورجليه يقبّلُها ويبْكى ؛ فأبكى جماعتَنا .

فلمّا دخلتُ على أحمد بن طولون شافهْتُه من خبر العُمَرِىِّ بما سرَّه ؛ وعَرَضت عليه النجُب ؛ فقال : « حسنة والله » ؛ فقلت : « معى أيها الأميرُ ماهو أحسنُ من هذا » ، وحدَّثته الحديثَ . فأحضر الأعرابىَّ وخَلَعَ عليه وأثبتَه فى ديوانه ، وأمرنى بإنفاذِ رسولى معه فى الأعرابىّ الآخر ، فلمّا وافى خَلع عليه وأثبته . فلم يزالا فى خاصّته إلى وفاته .

* * *

أبو مصلح ومحبوس

٤ – وحدثنى موسى بن مُصلح المعروف بأبى مصلح – وكان هذا من الثِّقات عند أحمد بن طولون –

أنَّ أحمد كان يُرَاعى أمر المحبوس حتى يَمضىَ له حولٌ ، فإذا جازه لم يذكرْه . وكان يقولُ لى سِرًّا : « إذا تبيّنْت من رجلٍ براءة ساحة فسهِّلْ عليه واستأْمِرْنى ؛ فإنى أستعملُ التشدُّدَ للضّرورة إليه » .

قال موسى بن مُصلح : « وكان فى الحبْس رجل قد زادَ على سنتَيْن منقطِعًا إلى الله برغبتِه ؛ لا يسألُنا شيئًا من أمره ؛ وهو يُكِبُّ على الصلاة والتّسبيح والتضرُّع إلى الله .

فقلتُ له يوما : « الناسُ يضطربون فى أمورهم ؛ ويسألونى إطلاقَ الرُّقْعة [٢] إلى ذَوِى عِناياتِهم ؛ وأنتَ خارجٌ عن جُمْلتهم ؟ » ، فجزّانى خيرًا [٣] . ورَقّ قلبى عليه وكَبُر فى نفسى محلُّهُ ، فخلوْتُ به وقلت له : » لو استجَزْتُ إطلاقك بغير إذْنٍ لفعلتُ ؛ ولكِن استعِن بى فى أمرك » . فقال : « والله ما أعْرف فى هذا البلد

---

(١) انصرف مصاحبا : تعبير شائع فى هذا العهد وماقبله يراد به مصاحبا بالخير والبركة ، أو بمعونة الله أو نحو ذلك . (ج) .

(٢) إطلاق الرقعة : يعنى إرسال الرسائل (ش) .

(٣) جزاه خيرا : قال له : « جزاك الله خيرا » ، (ش) . وفى حواشى ج : « لم نجد هذا الفعل فى المعجمات ، وإنما قسناه على فدّاه : قال له : جعلت فداك » .

غيرَ أبى طالب الخليج – وكان هذا الرجلُ يتولّى شُرْطتىْ أحمد بن طُولون بمصر – ولو وصلتُ إليه سِرًّا ؛ أو برسالة مع من يفْهمُ (١) ؛ لرجَوْتُ تسهيلَ أمرى » فقلت له : « والله لآتِيَنَّ فى أمرك ما أُخْطِر به على نفسى (٢) . أنا أُطْلقك سرًّا على أن تُوَثِّقَنى بأيْمان مُحرَّجة أنّك لا تهرُبُ عنِّى ولا تُخْفِرُنى » ، فقال : « إذا كنتُ عندك بمنزلةِ مَنْ يُشكُّ فيه ؛ فلا حاجة لى بإخراجك إيَّاى » . فوافقته – من غير يمينٍ ٱرتهنْتُه بها – على أن يقيمَ ثلاثة أيام ، فأطلقتُه ليلةَ الجمعة ، وفارَقْتُه على أن يصيرَ إلىّ ليلةَ الاثنَين .

فلمَّا كان سَحَرُ يوم السبت ، وافَانى كما فتحت (٣) باب السجن ، فلمّا دَخَلَ سَجَد وحَمِد الله ، وقال لى : « بعثتُ إلى أبى طالب الخليجَ امرأةً من أَهْلِنا وَطَوَيْتُ عنه إطلاقى ، وسألتُه أنْ يَلْطُف فى أمرى فوعَد بذلك ، وخلَّف المرأةَ حتى ترجِعَ إلىَّ بالجواب . وركب إلى الأميرِ عَشِيَّةَ الجُمُعَة ، فأقام إلى قريب من العَتَمَة ، ثم ٱنصرفَتْ إلىَّ المرأةُ فقالت : « وافَى أبو طالب الأميرَ وهو مغمومٌ ، فقال لى : « كَلَّمته فيه فقال : « والله لقد أَذْكَرْتَنى رجُلًا يحتاج إلى عُقُوبة ! » ، ثم تقدَّم إلى رجلٍ أن يَصِيرَ بك إليه عند جُلوسه فى يوم السبت ، ووَجَّه إلى أن أَرجِعَ إلى الله عز وجل فى أمْرِك ، فليتَنى لم أتكلَّم فيك ! » . فسَحِرْت (٤) – مع ما تَيَقَّنْتُه فى أمرى – خوفًا أن يأتيَك رسولُه فلا يجدُنى ، فيلحَقَك مكروهٌ منه . ورأيتُ كُلَّ ما يُوعِدنى به أسهلُ علىَّ من أن أُخْفِرَ ظَنّك بى ، وتقديرَك فىَّ » .

فما تَرَجّلَ النهارُ (٥) حتى وَافَى الرجلُ فتسلمه مِنّى . وحضرت الدَّار – وقد

---

(١) كذا فى ش . وفى ج ، ع : « أوبرسالة ممن يفهم » .

(٢) كذا فى ش ، ع . وفى ج : « ما أخطر به نفسى » . ورواية البلوى : « والله لأخاطرن فيك بنفسى » .

(٣) كما فتحت : يريد (حين فتحت) وقد ورد هذا الحرف فى كثير من كتب هذا العصر ؛ وانظر هذا فى آخر القصة (٦٨) ، (ش) .

(٤) سحر : بكر فى السَّحَر . (ش) .

(٥) ترجل النهار : ارتفع كما يرتفع الرجل عن الصبا . (ش) .

أحضره أحمد بن طولون ، ومجلسُه بين الخاص والعام – فلمّا رآه بكَّتَه بالإجْلاب عليه فى الثّغر [١] . فاعتذر بعُذْرٍ قَبِلَه ، ولقيَه بالرَّأْفة ، بضدِّ ماخِفْتُه عليه ، وأطلقه . فكان من آثَرِ إخوانى عندى إلى أن فرَّقت الأيَّام بينى وبينَه » .

* * *

ابن أسباط والخناق

٥ – وحدَّثنى عمى إسحاق بن إبراهيم [٢] ، قال :

« انتظرتُ أبا عبد الله الواسطيَّ – كاتبَ أحمد بن طولون – فى داره ، حتى رَجَع من عند أحمد بن طولون . فأوصلَ إليه بعضُ الحُجّاب ثَبَتَ مَنْ وقف بالباب ، فرأى فيه إسماعيلَ بن أسْبَاط فسأل عنه . فقيل له : « وقف بالباب طويلًا وٱنصرَفَ » . فقال : « إنّ هذا الرجلَ ممَّن عَمَر هذه المنزلة مدَّةً طويلة ، ولست أشكُّ أنَّ مَجيئه لحاجةٍ له ، ومن الجميلِ أن أركَبَ إليه فأقْتَضِيَهُ حوائجَه ، وأبْلُغ فيها مَحَبَّته » . ثم ركبَ وسِرْتُ معه ، حتى دخلنا دارَ إسماعيل بن أسباط – وهى التى ملكها الشّيرُ بعده – ، فرأينا دارًا عاريةً من الستورِ والفُرُش ، وتأمّلنا مَنْ فيها من الحَشَم على حالٍ سيئةٍ . فٱستقبله إسماعيل بالشُّكر والدعاءِ له ، فقال له الواسطى : « إنه لا فرقَ بينك الساعةَ عندى فى المرتبةِ التى كنتَ فيها . ومن جَمَالنا فيما أفْضى إلينا أن نُحْسِن فيه خِلافةَ من تقدَّمنا ، وأن نراهم كالآباء المستحقِّين البرَّ من أولادِهم » ، وسأله عن حاجته ، فقال : « أُخبرُك بها بعد أن أحدّثَك بشىء يدُلّ على أنّ المعروفَ ينفعُ عند مستحقِّه من غيرِ المستوجبين له » .

« كانتْ لى – أيَّدك الله – دارُ خيلٍ نحو المَنْظَر [٣] ، وكنتُ أركبُ إليها فى غداةِ الليلة التى أُعاقِر فيها إخوانى . فركبتُ إليها يومًا فألفيتُ فى الصَّحراء جَمْعًا من العامَّة ، وقد ضاقَتْ بهم ، ومعهم عاملُ المَعُونة . واستقبلَتْنى امرأةٌ قد هَتَكت

---

(١) أجلب عليه : أعان عليه عدوّه ، والثغر : موضع المخافة من أطراف البلاد . (ش) .

(٢) كان من رجال ابن طولون وكبار خاصته . روى عنه البلوى طرفا من أحوال ابن طولون . (ج) .

(٣) لدى المقريزى فى الخطط ج ١ ص ٣١٨ : « قال القضاعى : المنظر : بناه أحمد بن طولون فى ولايته لعرض الخيل ، وكان عرض الخيل من عجائب الإسلام » .

سِتْرَها ، وكَشَفَت شَعَرَها ، فقالت : « ياسيّدى ! أخى ، وواحِدى ، وكافِلِى ، يُعْرَض على القَتْلِ الساعةَ ! » . فعدَلْتُ إلى صاحب المُعونة وسألتُه عن حالِ الناس ، فقال : « اجتمعنا لضَرْب خَنّاقٍ بالسوط » ، فقلت له بحضرة الناس : « ماحَقُّ هذا إلّا الإحراقُ بالنَّار ، وأنا أكتب فيه إلى السلطان » ، فأعلنَ الجميع بالدُّعاء لى ، وانصرَفُوا . فسألتُه البِعْثَةَ بالخنَّاقِ إلىَّ ، فوعدنى بذلك فى المساء . فلمّا صلَّيت عِشاءَ الآخرةِ أنْفَذَ إلىَّ منه شابًّا مُكْفَهِرَّ الوجه لا تَخْفَى قَسْوَتُه ، فقلت له : « أما تَسْتَحِى من الله وتخافُه فى طُعْمَتِك ؟ [1] » ، فقال : « ياسيّدى ! أنا أُشْهِد الله أنى لا أعاوِدُ هذا الفعلَ أبدًا » ، فأوصَيْتُهُ بخير ، وأضَفْت إليه من أخرجه عن البلد فى حالِ سَتْرٍ » .

« وأقمنا بعد ذلك سنين ، وتقاصَرَتْ أمورُنا وتغيَّرت أحوالُنا بتقليدِ إسحاق بن تميمٍ علينَا . فلمّا بَلَحْنَا [2] بما نُطالَب به ، أشْخَصَنى وأخى أحمدَ إلى الحضرة ، فطالَبَنا الوزيرُ بما لفّقه ٱبنُ تميم علينَا ، فشكونا إليه شدّة اختِلالِنا ، فقال : فُلان ! » فوافاه رجلٌ بمنزلةٍ أثيرةٍ [3] عندَه : غليظِ الطَّبْع ، كريهِ الوجْه ، تتأمَّل الشرَّفِى سجَاياه ، فقال : « استخرِج من هذين مائةَ ألفِ دينارٍ اليومَ » .

فانتزَعَنا من بين يديه بفظاظةٍ أيقَنْنَا بالهَلَكة . ثم صارَ بنا إلى حُجْرةٍ له فى دار الوزير ، فسألَنَا عن بلدنا ونِسْبَتِنا ، فلما سمع « أسْباط » سكَن فَوْرُه ورَقَّ قلبه ، وقال : « من تكونُون من إسماعيل ؟ » فقلت : « أنا إسماعيل ! » فبكى وٱنكَبَّ على رأسِى ورِجْلِى ، وقال لى : « ياسَيِّدى ! أتعرِفنى ؟ » ، قلت : « لا » ، قال : « أنا الْخَنّاق الذى أطلقْتَنى بمصر ! ووالله ما خَنَقْتُ أحدا بحمدِ الله بعد إطلاقى ، ولكنَّ شراسةَ طَبْعى عَدَلَتْ بى عن الزهادة إلى مادون الخَنْق ، وهو استخراجى للوزير الأموالَ بالتَّعْذيبِ ، وقد وَجَد عندى فيه مالم يَجِدْهُ عند غيرى » . ثم طَعَن فى تلك الحُجْرة [4] فأخْرَجَ إلىَّ صندوقًا يحمله غُلامان ، فقال : « فى هذا من

(١) الطعمة : طريقة كسب الرزق ، يقال : « فلان طيب الطعمة أو خبيثها » ، (ش) .

(٢) بلحنا : أى أعيانا من بلح الرجل (ع) . (٣) أثيرة : مكينة مقربة . (ش) .

(٤) فى تلك الحجرة : فى أحد مخابئ تلك الحجرة (ج) .

المالِ والحَلْيِ مانَكْتَفِى به ، فقومُوا بنا حتَّى نهرُبَ لئلَّا يقَعَ بكم بَاس » . فأعلمته أنَّا نَخَاف فى الهرَب تتبُّع الولدِ والأهل : فرجع إلى الوزير يبْكى بين يديه ويحدِّثه مَحَلَّنا - كان - وما أوْلَيْناه ، فعَجِبَ الوزيرُ من رِقتَّه علينا ، لما وقَفَ عليه من فَظَاظته ، وكان - شَهِدَ الله - أقوَى الأسباب فى دَفْع المطالبة عنَّا .

« ثم سأل أبا عبد الله الواسطيَّ - بعد هذا الحديث - حوائجَ وقَّع بها فى مجلسه ، ووكَّل بها مُتَنَجِّزا من خاصَّته ، [١] ولم تزل ألْطافه تعتاده إلى أن تُوُفِّيَ » .

* * *

محمد بن على ومسلمة

٦ - وحدثنى يوسُف بن إبراهيم والدى [٢] ، قال : حدَّثنى إبراهيم بن المهدى [٣] عن إسحاق بن عيسى بن عليٍّ بن عبد الله بن العباس [٤] ،عن أبيه :

أنه كان مع أبى عبد الله محمد بن علي [٥] - أبى الخُلفَاء - برُصَافة هِشام [٦] بعد وفاة أبى محمد عليّ بن عبد الله ،وأنّه أقام ثلاثة أشهرٍ برُصافة هِشامٍ لا يأذَنُ له هشامٌ عليه ، إلى أن بَلَغَ أبا عبد الله إجماعُ مَسْلَمَةَ القُدومَ على هشام ،

---

(١) المتنجز : المتعجل . الألطاف : جمع لطف ، وهى التحفة والهدية . (ش) .

(٢) هو يوسف بن إبراهيم أبو الحسن الكاتب ، كان من جلة الكتاب بمصر ، وكان فى خدمة إبراهيم بن المهدى ، ثم رحل إلى دمشق سنة ٢٢٥ هـ ، وكان يوسف من ذوى المروءات . مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ج ٢٨ ص ٦٨ .

(٣) هو أبو إسحاق إبراهيم بن المهدى : أخو هارون الرشيد . كانت له اليد الطولى فى الغناء والضرب بالملاهى وحسن المنادمة ، بويع له بالخلافة بعد المائتين ، وتوفى سنة أربع وعشرين ومائتين : ابن خلكان ج ١ ص ٣٩

(٤) هو إسحاق بن عيسى بن على بن عبد الله بن عباس أبو الحسن الهاشمى . كان من وجوه بنى هاشم وأعيانهم ولىَ إمرة المدينة للمهدى وولاه الرشيد البصرة ثم ولاّه دمشق بعد عزل عبد الملك بن صالح سنة تسع وسبعين ومائة . وتوفى سنة ثلاث ومائتين . الصفدى : الوافى بالوفيات ج ٨ ص ٤٢٠

(٥) هو أبو عبد الله محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمى ، وهو والد السفاح والمنصور الخليفتين . كان محمد من أجمل الناس وأعظمهم قدرا ، توفى سنة اثنتين وعشرين ومائة . ابن خلكان ج ٤ ص ١٨٦

(٦) رصافة هشام بن عبد الملك فى غربىّ الرقة ، بينهما أربعة فراسخ على طرف البرية ، بناها هشام لماوقع الطاعون بالشام وكان يسكنها فى الصيف . ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٤٧

فتلقَّاه على أميالٍ من الرُّصافة ، وشكى إليه جَفْوةَ هشام وتأخيرَه الإذن عليه . فقال له مسلمة : « أرجُو أن يزولَ هذا بقُدومى » ، وأمره أن يُقيم بباب هشامٍ إذا دخل عليه مسلمةُ ، ولا يَرِيم [١] ما أقام مَسْلَمة عنده ؛ فأقام أبو عبد الله إلى وقت زَوالِ الشمس .

قال عيسى بن على : فخرج مسلمةُ إليه ، فقال له : « قوِّضْ رَحْلَك أبا عبد الله ! فما لَكَ عند الرجل من خَيْرٍ ! لأنّى خاطبته فى أمرك – بعد ماتَقَضَّى سلامى عليه –: « محمد بن على بن عبد الله على شابِكةِ رَحِمِه برسولِ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، يقيم ثلاثةَ أشهرٍ ببابك فلا يؤذن لهُ عليك ؟ » . فقال : « أُلْهُ عنه أَبَا سعيد » ، فأمسكت حتى حَضَر الطعامُ ، فأعلمتُه أنّى لا أستجيزُ الأكلَ وإنّهُ قائمٌ على الباب ! فغضب غضبًا زادَ به حَوَلُه [٢] ، وقال : « يسمِّى ٱبنَيْه عبدَ الله وعبد الله ، ويرجُو بهذا أَنْ يَلِيَا الخِلافةَ ، ثم يَطْمَعُ فى خيرٍ منّى ! والله لولا ماسّةُ رَحِمه برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لقطَعْتُ من وسـطه شِبرا [٣] » .

ثم عانقَ أبا عبد الله ، وقال : « رسُولى إليك صائرٌ » . فرجع أبو عبد الله إلى رحله فقوَّضَه ، وبقى فى حَيْرةٍ لعجْزِه عما يُنْهِضُه . ووافاه رسولُ مسلمةَ يقول : « لم أقدِّرْ فى سَفَرى هذا طولَ اللُّبْثِ ، وأُشْهِد الله أَنّى ماحملتُ معى إلّا ألفًا وثلاثمائة دينارٍ ، وقد وجَّهتُ إليك بالألْف ، وخلَّفتُ الثلاثمائة لنفقتى » قال إبراهيم بن المهدى : فُحُدِّثَ بهذا الحديثِ الرشيدُ فى حَديثة المَوْصِل [٤] فبكى ، وقال : « وَصَلَتْ أبا سعيدٍ رَحِمٌ ، والله لا دخلْتُ الرَّقَّة حتى أقْضِىَ عَارِفَتَه عندنا ! » . فلما وافَيْنا حصنَ مسلمةَ ، أحْصَى مَنْ فيه من وَلَده الذُّكورِ والإناثِ فوجَدَهم أربعين ، فأمرَ لهم بأربعين ألف دينار » .

* * *

(١) لا يريم : لايبرح مكانه . (ش) .

(٢) كان هشام بن عبد الملك أحول (ش) .

(٣) يعنى خصيته (ع) .

(٤) حديثة الموصل : مدينة على دجلة بالجانب الشرقى . ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٢٣٠

ابن نصير والورّاق

٧ – وحدَّثنى أحمدُ بن وليدٍ ، قال :

« ودّعت إسحاقَ بن نُصَير العِبَادِى [١] فى بعض خَرَجَاتِى إلى بغداذَ ، فأخرج إلىَّ ثلاثة آلاف دينارٍ وقال : « إذا دخلتَ بغداذ ، فادفَعْ ألف دينار إلى ثَعْلَب [٢] ، وألف دينار إلى المبرِّد [٣] ، وصِرْ إلى قَصْر وَضَّاحٍ [٤] فانُظر إلى أوّل دُكّانٍ للورَّاقين ، فإنّك تجِد صاحبَها – إن كان حيًّا لم يَمُت – قد شَاخَ ، فاجلِسْ إليه وقُلْ له : « إسحاق بن نُصَير يقرَأُ عليك السَّلام : وهُو الغلامُ الذى كان يقِصدُكَ كُلَّ عَشِيَّةٍ – راجلا من دارِ الرُّومِيِّين – بدُرَّاعة [٥] وعِمامةٍ ونعلٍ رقيقةٍ ، فيستعيرُ منك الكتابَ بعد الكتاب ، فإذا ٱقتضيته كِرَاءَ ما نَسَخَ منه قال : « ٱصبِرْ علىّ إلى الصُّنْع [٦] » . فإذا استقرَّتْ معرِفَتى فى نفسِه دفعتَ إليه هذه الألف الدِّينار وقلت له : « هذه ثَمَرةُ صَبْرِك علىّ » .

قال لى أحمدُ بن وليدٍ : فلمّا دخلتُ بغدادَ – ودفعتُ الأَلْفَى دينار إلى ثعلبَ والمبرِّد –، مضيتُ إلى قصرِ وضَّاحٍ ، فألفيت الدكَّان التى وَصَف لى قفرًا ليس فيه كتابٌ ، ورأيتُ فيها الشيخَ الذى وصَفَه لى فى حالٍ رَثَّةٍ وثيابٍ خَلَقةٍ ، وقد أفضى به الأمْرُ إلى التوريق للناس [٧] . فجلست إليه وسألتُه عن حالِه ، فقال : « يا أخى ! ماظنُّك بحالٍ : ما تَتَأمَّلُه فىَّ أحسنُ مافيها ؟ » ثم خَرَجْنا إلى المسألة إلى أشياءَ

---

(١) هو إسحاق بن نصير العبادى . كان من كتاب الخراج فى عهد الدولة الطولونية . توفى سنة سبع وتسعين ومائتين . المقريزى : المقفى ج ٢ ص ٥٩

(٢) هو أحمد بن يحيى بن يسار الشيبانى البغدادى أبو العباس ثعلب ، إمام الكوفيين فى النحو واللغة . توفى سنة إحدى وتسعين ومائتين . السيوطى : بغية الوعاة ج ١ ص ٣٩٦

(٣) هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدى البصرى أبو العباس المبرد ، إمام العربية ببغداد فى زمانه . توفى سنة خمس وثمانين ومائتين . السيوطى : بغية الوعاة ج ١ ص ٢٦٩

(٤) قصر بنى للمهدى قرب رصافة بغداد . وقد تولى النفقة عليه رجل من أهل الأنبار يقال له : وَضّاح ، فنسب إليه . ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٣٦٤

(٥) الدراعة : جبة مشقوقة المقدم . (ش) .

(٦) الصُّنع : الفرج وتيسّر أسباب الرزق . (ج) .

(٧) التوريق : نسخ الكتب – على الورق – وتجليدها . وهو الورّاق . (ش) .

كان فيها خَبَرُ إسحاقَ بنِ نُصَير ، فقال : « قد كان يجيئُنى من دَارِ الرُّومِيين غلام – ووصفَهُ – فأسْمَحُ له بالنُّسْخة بعد النُّسخة – يقال له : « إسحاق » ، وكان يَعِدُنى فى كلّ شىءٍ يأخُذُه إلى الصُّنْع ، وأُخْبِرْتُ أنّه وَقَع بنواحى مِصْر وماحَصَل لى منه شئ !؟ » فأخرجْتُ الألْف الدّينار وقلتُ له ، يقول لك : « هذه ثمرةُ صَبْرِك » ، فكاد والله يموتُ فرحا . فقلت له : « ليستْ دراهم وهى دنانير ! » . وانصرفت عنه وهو أحسنُ من فى سُوقه حالاً .

قال لى أحمدُ بن وليد : واجتزت بعد ذلك فرأيت دُكّانه معمورةً ، وهو متصدِّرٌ فيها على أحسنِ حالٍ وأوفاها » .

* * *

ابن الزنق والقاسم بن شعبة

٨ – وكان بِنَحْوِ دارِ العُنْقودِ شيخٌ يتنخَّس [١] فى الدَّوَابِّ – يُعْرَف بابن الزّنق – قد لَحِقَ بمصر أَكابرَها ، ورأيتُه فى أيام أحمد بن طولون قد عَلَتْ سِنه ، وضَعُف عن التصرُّف . وكان له اْبنُ أخت – خفيفُ الروح ، مقبولُ الصورةِ ، حُلْوُ الألفاظ ، يتنخّس فى الدَّوابّ – فخفّ على قلب القاسم بن شُعبَة . وكان شُعْبةُ من أكابر أصحابِ أحمد بن طولون ، ومات فى طاعته ، فرَدّ إلى القاسمِ ابنِه إحْدى الشُّرْطَتين بمصْر . فانصرَف ابنُ أخت ابن الزنق من عند القاسم وقد خَلَع عليه دُرَّاعة خَزّ من تحتها جُبّة مُلَحَّم [٢] ، فنظر إليها خالُه ابن الزنق ، فقال : « ماهذه الخلعة الرائعة ؟ » ، فقال : « خلعها علىَّ القائد .! » ، يريد القاسم بن شُعْبَة . فقال : « يابُنَىَّ ! إن كنتَ تَصبِر على التَّدَلِّى معه فى مِحَنِه ، كما تَتَدَلّى فى نِعَمِه ، وإلَّا فاعتزلْه ، ولا تَفْضَحنا بالقُعود عنه فى نَوَائبه » ، فقال : « أرجو أنْ يصونَه اللهُ وما أنعمَ عليه به ، من نائبةٍ تَلْحَقه ، أو مكروه يقع به » ، فقال : « وأنا أرجُو هذا أيضًا له ، ولكنْ ينبغى أن لا تَنْسَى نصيبه منك فى الشِّدَّة ، كما عُنِىَ بك فى النِّعْمة » .

---

(١) النخاس : بائع الدواب ، ويتنخس فيها : يتجر . (ش) .

(٢) الملحم : ضرب من الثياب تختلف لحمته عن لحمة غيره فى نوعها . (ش) .

واتّصل بأحمد بن طولون عن القاسم بن شعبة شئٌ أنكره ، فحبسه وَوَكّل بداره جماعةً ، واْختفى النخّاسُ فى دارِ خاله . فسأله بعد يومَيْن عن سبب مُلازَمته المنزل ، فقال : « وَجَدتُ عِلّةً » ، إلى أن اتّصل الخبرُ بالشَّيخ ، فدخل إلى ابن أُختِه فقال : « قبّحك الله ! سرَقْت معروفَ هذا القائدِ ، وخَلَّيته يُقَارع شَجْوَه بمحْنتَِه ؟! » . وأسرجَ حمارًا له وركبه ، وجيرانُه يناشدونه الله ألّا يَفْعَل ، فقال : والله القَتْلُ أحسنُ مما أتى به هذا الوَغْدُ » .

ثم قصد دارَ القاسم بن شُعبة – وعليها جماعةٌ من الموكَّلين وأصحاب الأخْبار [١] ، فوقف على الباب فقال : « كيف حالُ القائد أبى محمد أيَّده الله ؟ » ، فقالوا : « اْمْضِ ياشَيخُ » ، فقال : « ما أمْضِى حتى أُبْلِىَ عُذرًا ! هذا رجل قد لَزِمَتْنى له عارفةٌ ، وهذا أوانُ قَضَائها » . فوقَع خبره إلى أحمد بن طولون فأَحضره ، وقال : « ماكنت تَعْمَله للقاسم بن شعبة ؟ » ، قال : « أوْلانىفى بعضِ أقاربى جميلًا ، فانتَصَبْتُ الساعةَ لما يحتاجُ إليه ؛ وما أَحَقَّ الأميرَ أن يَفْضُلَنى بحُسْنِ المكافأةِ عن طاعةِ والدِه ، فقد كان مشهورا بها ! » .

فحدّثنى أبو العباس الطَّرَسُوسِىّ . أنّ أحمد بن طولون قال له فى هذا المجلس : « ما أحسن ما اهتدى هذا الشيخ إلى إذْكارِى بحقٍّ قاسمٍ وعَطَفنى عليه ! » . ثم أحضر القاسم بن شُعْبة وخَلَع عليه خِلْعَةَ رِضًى ، وصَرَفه إلى منزله . وعَدَل الشيخ ولم يدخل معه داره ؛ وانصرف إلى بيته وقد قام بما قَعَد عنه ابنُ أخته .

* * *

هارون بن ملول وابن تميم

٩ – وحدثنى هارون بن مَلُّول ، قال :

لما مات أبى وَرِثتُ منه مالًا جَمًّا ومُسْتَغِلَّات نفيسةً – وكان يَقْصُرنى على

---

(١) أصحاب الأخبار : الجواسيس ، وقد كثروا جدا فى عهد ابن طولون لشدة رغبته فى معرفة أحوال الناس وتعقب أعدائه . (ج) .

زِيِّ التجار ، وَيَمْنَعُنى من التَّخَرُّق [١] والسَّرَف فى الهَيْئة - ، فعَمَدْتُ إلى أثوابِ وَشْيٍ سَعِيدِىّ [٢] كانت فى المتاجِر التى خَلَّفَهَا والدى فقطعْتُها ، وقَطَعْت لخدمٍ - أرتَبِطُهم للتجارة - من المَلْحَمِ والدِّيباج مالا يتسمَّح به أحدٌ من أبناء الترَفه . وجلستُ فى الوَشْيِ ، وقامَ الغلمان بين يدىّ فيما قطعْته لهم .

ووَافانا إسحاق بن إبراهيم [بن تميم] مُفْتقِدا ، فتأمَّلنى فقال : « لقد سرنى بُعْدُ يُتْمَتِك وحُسْنُ زِيِّك [٣] ، بارك الله عليك ، وأحْسَن إليك ! » . ثم وَافى جماعةٌ من إخوان أبى وأصفِيائِه ، فوالله ما أنكَر علىّ واحدٌ منهم ماخرجتُ إليه من زىّ أسْلافى . فلما كان فى عَشِىّ ذلك اليوم ، وافانى رسولُ إسحاق بن تميم : « عندى من لاتَحْتَشِمه ، فتُؤْنِسُ جَمَاعتنا بحُضُورك ؟ فقد أعجبَنى اليومَ حُسْن زِيِّك ! » . فزدت فى الخِلْعة ورَكِبْتُ ، فلما دخلتُ إليه لم أَفْقِد عنده أحدا من إخوان والدِى . فلمَّا توسَّطت الصَّحْنَ ابتدَرَنى الغلمان ، وصاح بى إسحاق : « تتوهَّم ياجاهلُ أَنّ أباك مَضَى واستَرَحتَ ! ولا تعلمُ أنّ أباك خلَّف لك هؤلاء الآباء بأَسْرِهم يردُّونك عن الخطإ بأليم العقوبةِ ، ولا يَشْفَعون فى مصلحتك من عَظيم ماكان أبوك يَرِقُّ عنه فيك؟ » ثم بُطِحت فى وسط الدار ، فصحتُ بهم : « يا سادتى ! والله ماقُرِعت قطُّ بمِقْرَعةٍ ! » ، فقال إسحاق : « ولا أَتَيْتَ بمثلِ هذا الفعل ! » . وضُربت ضَرْبًا مُبَرِّحا ، ولم تُرْفع المِقْرَعة عنّى حتى حَلَفت لهم ألاّ أزيدَ على مَعْرِض والدى وٱقتِصاده ، فأقمت على هذا إلى اليوم » .

ومازالَ عنه إلى أن تُوُفِّىَ .

* * *

---

(١) التخرق : التوسع فى العطاء والمعيشة . (ش) .

(٢) وَشْى سَعِيدىّ : ضرب من برود اليمن موشية تعرف بالسعيدية ، منسوبة إلى سعيد بن العاص (ع) .

(٣) كذا فى ع ، ش ، وبهامشها : « اليتمة : حالة اليتم ، ولم ترد فى كتب اللغة » . وفى نسخة ج : « بعد قيمتك » وبهامشها : « بعد قيمتك : ارتفاع منزلتك » .

المؤلف وعراب من القيسية

١٠ – ولما استفْحَل أمرُ ابنِ الخليج ، انحَازَ عنه جيشُ مصر إلى الإسكندرية وخلَا الفسْطاط منهم ، وكنتُ بمدينة أهْناس [١] ، واضطربتِ النواحِى ، واحتجت إلى مُشَاهدة الفسطاط . فتخفَّرت بأربعة نَفرٍ من القيسيّة . دَفَعْت إليهم عشرين دينارا وخرجت معهم ، فأحسنُوا العِشْرة ، وأجمَلوا الصُّحْبة . وكنَّا لانجتاز بحيٍّ ولا جماعة إلاّ كَفَوْنا مَؤُونةَ كلامهم ، وصَرَفوا عنَّا بأسَهم . ولم يَزل كذلك دَأْبُنا حتى بَلَغْنا قصر الجيزة ، فأقبلتْ رَعلة من الأعراب [٢] – قدَّرتُها برأيِ العين خمسين فارسًا – كانت من غير حيِّهم ، فصمَّمَتْ نحوَنا برِمَاحها ، وعَمِلت على نَهْبنا وقَتْلِنا ، ورأيت الموت فى أسِنَّتِهم . وأحسنَ الأربعةُ – الذين تَخفَّرْنا بهم – لقاءَها والتضُّرعَ إليهم ، وناشدُوهم ألاّ يُخفِروا ذِمَّتَهم ، وأجمَلُوا التأتِّىَ حتى انصرفوا [٣] .

وجَدَدْنا فى السَّير حتى انتهينا إلى حَىِّ المُخفِّرين لنا ، فقال المخفِّرُون : « قد بلغتَ إلى من تَأمَنُه ، فحُطَّ رَحْلَك ، فما تستقلُّ [٤] دوابُّك الزيادةَ على هذا السَّيْر » . فنزلت وتقدَّمْتُ إلى الغِلْمان فى إطْعامهم ، ولم أَجِد للطعام مَسَاغًا من فَرْطِ مالَحِقنى من الرَّوْع . وعملت فى المخفِّرين هذه الأبيات :

جَزَى الله خَيْرًا مَعْشَرًا حَقَنُوا دَمِى ... وَقَدْ شُرِعَتْ نَحْوِى المُثَقَّفَةُ السُّمْرُ

دَرَاهِمُهُمْ مَبْذُولَةٌ لِضَعِيفِهِمْ ... وأعْرَاضُهُمْ مِنْ دُونِهَا الغَفْرُ والسَّتْرُ

إذا ما أغارُوا واسْتَبَاحُوا غَنِيمةً ... أغارَ عليْهِمْ فى رِحالِهِمُ الشُّكْرُ

وإنْ نَزَلُوا قُطْرًا مِنَ الأرْضِ شَاسِعًا ... فَمَا ضَرَّهُ ألّا يَكونَ بهَا قَطْرُ

فلَحَظنى واحدٌ منهم وأنا أكتُبها ، فظَنَّ أنِّى أكتُب إلى السلطان فأشتكى ماكان من الفُرْسَانِ الذين لَقُونا بقَصْرِ الجِيزة ، فقال : « قد سَلَّمك الله من أولئك

---

(١) أهناس : بلدة بالصعيد من عمل البهنسا . ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٢٨٤

(٢) الرعلة : القطعة من الخيل قدر عشرين . (ش) .

(٣) تأتى للشئ : ترفق له وأتاه من وجهه . (ش) .

(٤) تستقل : تحتمل . (ش) .

القوم ، وقد أحسنوا إلينا فى حُسْن الإجابة لَنَا ، فلا تَكْتُب فيهم بشىء » . فقلت : « والله ماكَتَبْتُ فيهم ولا فى غيرهم إلى السُّلْطان بشىء » ، فقال لى شيخٌ من المخفِّرين – وقد قَرُب منِّى –: « فما تكتب ؟ » ، قلت : « أَكْتب أبياتًا مدحتُكم فيها » ، فقال : « وإنك لَتَقْرِضُ الشِّعر ؟ » ، قلت : « نعم ! » ، قال : «أنشِدْنى على اسم الله » ، فأنشدته إيَّاها ، فقال : « بَرَّكَ الله ووَصَلَك ! » .

ثم صَاح بالثلاثة ، فلما اجتمعوا أنشدهم إياها ، فما خَرَم – شَهِدَ الله – حرفًا واحدًا ، فعَجِبْتُ من حِفْظِه لها ولم أُعِدْ عليه حرفًا منها ، وتبيَّنت الفَرَح فى سائِرهم ، وحفِظوها بأجْمعهم . ثم صاح بهم الشيخ : « ما تَنْتَظِرون ؟ ٱرْحَضُوا [1] السَّوْءَة عنكُم » . فأدخلوا أيْدِيَهم فى جيوبهم ، وجَمَعُوا شيئا أخذه الشيخُ منهم ، ثم قال لى : « قد شكرنا صَنِيعَتَك ، والله لا نَجْمع بين شِعْرِك ووَفْرِك ! » ، ووضَع العشرين الدِّينار بين يَدَىَّ فأكبَرْت ذلك وأَعظَمْته . فقالوا لى : « والصوابُ أَلَّا يعلَمَ بها عشيرتُنَا ، فيرجع عليك منها أكثرُ مما خِفْتَهُ ممَّن لَقِيَك بقَصْر الجيزة » . وركبتُ فسرتُ مع جمعٍ كثيرٍ منهم وهم ينشدون تلك الأبيات ، فالتمْستُ أن يَقبلُوا منِّى بِرًّا فلم أَصِلْ إلى ذلك ، وَرأَوْا أَنّ الشِّعْرَ أحسنُ موقعًا ممَّا ملكته .

* * *

المؤلف وعباسى

١١ – ونزل فى حَارَتنا غلامٌ أمردُ تأخُذُه العين ، وكنت أُسَلِّم عليه إذا ٱجتَزْت به ، كما أفعل هذا بغَيره من جِيرَتِى . فانصرفْتُ يومًا إلى منزلى فوجدتُه قائمًا على بابه ، فدفع إلىَّ رقعةً يذكُرُ فيها أنه عبَّاسِىٌّ من وَلَد المأمونِ ، ويسْألنى فيها بِرَّه . ودخل من كان معى بدُخُولى ، فقضيتُ شُغْلى بالجماعة حَتَّى ٱنصرفُوا ، ووضعت المائدةَ بينى وبين العبَّاسِىِّ فأكَلْنا ، وهو يَتأَمَّلنى فلا يجد فىَّ شيئًا قَدَّره . فلما غَسَل يدَه ، دفعتُ إليه ثلاثةَ دنانير ، واعتذرتُ إليه من تقصيرى فى حَقِّه ، وٱنصرفَ وقد رأيتُ تَبْجيلى فى حَماليق عَيْنَيه .

---

(١) أرحض الثوب : غسله ، والمعنى كافئوه على معروفه (ع) .

فلما كان بعد ذلك بسُنَيَّاتٍ [١] – وأنا فى ضياع تقبَّلتُ بها [٢] ولى فيها غلَّةٌ [٣] بمالٍ جسيم ، فخِفْتُ أن أدخُل الفسطاط فتَخْرَبَ الضياع وتتَعطَّلَ عِمَارَتُهَا ؛ فكنتُ أكمنُ نهارًا فى بعض منازِل الفَلَّاحين ، وأظْهَر ليلًا فأعِقدُ منها ماتهيّأ لى عَقْدُهُ [٤] . فإنى لكامنٌ فى يوم من الأيام حتى سمعت رَجَّة شديدةً ، فدخَل إلىّ بعضُ غِلْمانى . فقال : « دَخَل أصحاب دُميانة [٥] الضَّيْعَة ، وعَمِلوا على نَقْل الغَلَّات ! » ، وأيقنت بتَلَفِ أكثَر ما أملِكه ، ثم سكَنَتْ أَصْوَاتُهُم .

ودخل إلىّ غلام لى فقال لى : « يامولاى ! كانت هذه الضِّياعُ قد أشْفَتْ على نَقْل مافيها [٦] ، حتى نَظَر إلىَّ العَباسُّى الذى كان فى جِوارنا ، فقال لى : « ألستَ غُلامَ أحمد بن يُوسف ؟ » قلتُ : « نعم ! » ، قال : « فهذه ضِيَاعه ؟ » ، قلت : « نعم ! » ، فصاح بالجماعةِ التى دَخَلَتْ من أصحاب دُميانة : « ٱخرجوا بأسْركم عنها » ، فخرجوا . ثم قال لى : « قل لمولاك : ياسَيِّدِى ! مَحَلِّى عند الأمير دميانة مَحَلُّ الأخ ، فٱظَهَر واركب إليه ، فقد آمنك الله على نَفْسِك ومَالِك » . فسألت الغلام : « ماكان زِيُّه ؟ » ، فقال : « كان عليه كساءُ صوفٍ مما يُنَام فيه ؛ وتحته خُفْتَانٌ » [٧] .

فأَحضرتُ بعض مشايخ الضّيعة ، وحملت معه إليه دُرَّاعَةَ خَزٍّ كُحليّةً ، ومُطْرَفَ خزٍّ [٨] ، وخمسين دينارا ، وسألته أن يَقْبَل مايحتاج إليه من ناحيتى .

---

(١) سنيات : سنوات قليلة .

(٢) قبل العامل بالعمل : تكفل به وضمن إنجازه ، وقبّلت العامل العمل فتقبّله طلبت إليه أن يكفل إتمامه . والقبالة فى هذا العهد كانت أن يأخذ الرجل أرض السلطان أو غيره على أن يؤدى كل سنة كذا قنطارًا أو كذا إردبا . (ج) .

(٣) الغلة : الدخل من كراء دار ، أو أجر غلام ، أو فائدة أرض . (ش) .

(٤) أعقد : أجمع من حاصلها . (ج) .

(٥) انظر فى دميانة : الكندى : الولاة ص ٢٦٨ فما بعدها .

(٦) أشفى على كذا : أشرف وقارب . (ش) .

(٧) الخفتان : ضرب من الثياب ، وكأنه قريب مما نسميه (القفطان) ، (ش) .

(٨) المطرف : ثوب يكون فى أطرافه وشى وأعلام . (ش) .

فقبل الدُّرَّاعَة الخزّ ، ورَدَّ المُطْرَف والدنانير ، وقال لرسولى : « والله لَلثّلاثة الدنانير – التى وَهَبها لى لِشَرَفى لا لشئٍ مما ظننته به – أَحسن موقعًا عندى مما رَدَدْته إليه ، فكثَّر الله فى الناس مثله ! » .

فلم يزل عَضُدًا لى وسِتْرا علىّ ، حتى انصَرف دميانة عن الناحية .

* * *

يحيى بن نجه والرخجى

١٢ – وحدثنى يحيى بن الفُضَيْل [١] ، عن يحيى بن نجه – وكان هذا الرجل حَسَنَ الكتابةَ – قال :

« تردَّدتُ إلى عُمَر بن فَرَج الرُّخَّجِىّ [٢] مُدَةً ، فدخلتُ عليه فى يوم من الأيام . فقال : « قد أنْضَيْناك [٣] ! قد استَتْمَمْتَ فى هذا اليوم سنةً » ، ووقَّع لى بتقليد عَمَل سَنىٍّ . واضطربت فيما أحتاج إلى التجهُّز به ، فلما لم يبقَ علىّ إلا نَصُّ [٤] رِكابى ، بَرَّزْت ظَهْرى وثَقَلى [٥] ، ووقفت على باب دارِ أمير المؤمنين المُنْتَصِرِ [٦] أنتظر توديعَ عُمرَ والخروج إلى عملى . فرأيتُ غلمانَ عُمَر يتسلَّلون فسألت عن السبب ، فقيل لى : « سَخِطَ أمير المؤمنين على عُمَر ! » فحِرْتُ ،

---

(١) شاعر مصرى قال فى هجاء عنبسة بن إسحاق الضبى الذى ولى مصر سنة ٢٣٨ :

خَارِجِيًّا يَدِينُ بالسيف فينا ويَرَى قَتْلَنا جميعا صَوَابَا

الكندى : الولاة ص ٢٢٦ ولديه : « يحيى بن الفضل » .

(٢) هو عمر بن فرج الرُّخَّجىّ ، كان من أعيان الكتاب فى أيام المأمون إلى أيام المتوكل ، شبيها بالوزراء وذوى الدواوين الجليلة . والرخجى : نسبة إلى رُخّج : كورة ومدينة من نواحى كابل . ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٣٨

(٣) أنضاه : أتعبه . (ش) .

(٤) نص الركاب : تسييرها . (ش) .

(٥) الثقل : متاع المسافر وحشمه . (ش) .

(٦) هو المنتصر بالله محمد أبو جعفر بن المتوكل . بويع له بالخلافة بعد قتل أبيه فى شوال سنة سبع وأربعين ومائتين . فخلع أخويه : المعتز والمؤيد من ولاية العهد الذى عقده لهما المتوكل بعده . مات سنة ٢٤٨ . السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٤١١

وخِفْتُ أنْ أرجعَ إلى مَنْزِلى فأخْسَرَ جميعَ ما أنفقْتُه . فإنى لفى تلك الْحَيْرَة حتَّى خرج عُمَر بن فرج ، ومعه رجُلٌ من شِيعَةِ بنى العباس ، فقال لى : « أين كُلُّ من كان معى ؟ » ، فقلت « تَسَلَّلوا للحادث ! » ، فقال : « وَقدْ وُكِّل بى هذا الشِّيعِىُّ على أنْ يَنْفِيَنى إلى بلاد الترْك ، ولم أُعِدَّ شيئًا ولا أجد من يُعِدُّه لى » ، قلت : « هذِه قُبَّةٌ وظَهْرٌ يُقِلُّك ، وأنا أصحبُك شكرا على ما أسْلفتنى من التَّقْلِيد » .

فركب القُبَّةَ ، وأحْضر الشِّيعى قُبَّةً له ، وَرَكِبْنا وأنا أُعادِلُه [١] ، وانتهى المسيرُ بنا إلى خُرَاسان . وكنّا لا نُفْضِى من بُلدان خراسان إلى بَلدٍ إلا وجدناهُ أغلظَ طَبْعًا من البلدِ الذى فارقناهُ ، حتى بلغْنا بُخارَى ، فرأينا قومًا فى نهايةٍ من غِلَظِ الطباع ، فقال لى - حِينَ رآنى أتعجَّبُ منهم - : « كيف لو رأيتَ التُّرك وبلدانَهم ؟ يقتُلون المُسْتَجِيرَ بهم ، ويُغيرُ بعضهم على بعض ، فيَهْلِك النّازِعُ إليهم بينهم [٢] ! » ، فَزَادنى هذا القول تهيُّبًا للسّيْر معه ، ثم مَلَكتُ ما استغْرَبَ [٣] منّى ، وتماسكتُ .

وجَدّ بنا السَّير عن بُخارى إلى أرضِ التُّرْك ، وإنى معه فى القُبّة وهو يُحَدّثنى بشئٍ قد شَغَلنى عن تَبيُّنه ما يُقْلِقُنِى من ركوبِ ما أَقدمتُ عليه من الخَطَر - حتى سَمِعْنا حَلَق البَرِيد ، فتَشَوَّفْنا لها ، ووافى بها رَسول أمير المؤمنين وكتابُهُ بما أمَرَه بالحضرة : من الرِّضَا عنه وَردِّه إلى مَرْتَبته ؛ ويأمُرُه فيه بكَشْفِ مُدُن خراسانَ ، وتجريدِ عُقُودها [٤] على أصْوَب ما استقرت عليه ، واستثارة التوفير بها والزيادة فيها . فلما استتم قراءَتَه ؛ حَمِد الله وألَقى الكتابَ إلىّ ؛ وقال : « بارَك الله لك فى الخلاصِ وَهنّأَك المَزيدَ » . ورَدّ إلىّ تأمُّل ما أمَر به أميرُ المؤمنين من كَشْف عُقُودِ النَّواحى » .

---

(١) عادله : ركب معه فى الجانب الآخر من محمل البعير . (ش) .

(٢) النازع : الطارئ الغريب . (ش) .

(٣) ما استغرب عنى : ماتباعد عنى من عزيمتى ورأيى . (ش) .

(٤) بكشف مدن إلخ : المراد بكشف المدن هنا : التحقق من مقدار مساحة الأراضى التى يؤدى عنها الزرّاع خراجا للخليفة ، والمراد بتجريد العقود : تخليص عقود القبالات التى التزم الزرّاع فيها أداء مقدار معين من غلتها إلى الخليفة ، من كل غش وتدليس . (ج) .

فانصرفت إلى مَنزِلى بمائة ألف دينار ؛ مع ارتهان شكرِ المعامِلين [١] وإحْمادِ السلطان » .

* * *

والد المؤلف ومصطنعيه

١٣ – وحدّثنا أحمد بن يوسف ، قال :

« حَبَس أحْمد بن طولون يوسفَ بن إبراهيم والدِى فى بعض داره – وكان اعتقال الرجل فى داره يُؤْيِس من خلاصه –، فكاد سِتْرُه يَنْهَتِك لخوف شَمْلِه عليه . وكان له جماعةٌ من أبْناء السَّتْر يتحمّل مُؤَنَها ، مقيمة عليه لا تنقطع إلى غيره . فاجتمعوا – وكانوا زُهَاءَ ثلاثين رجلا – فركبوا إلى دار أحمد بن طولون ، فَوقَفوا بباب له يعرف بباب الجبلِ [٢] ، واستأذنوا عليه فأذِن لهم . فدخلوا إليه ، وعنده محمد بن عبد الله بن الحَكم وجماعةٌ من أعلام مَسْتُورِى مصر ، فابتدروا كلامه بأن قالوا : « قد اتفقَ لنا – أيّد الله الأمير – من حُضُورِ هذه الجماعةِ مجلسَه ، مارَجَوْنا أن يكونَ ذريعة إلى مانَأْمُله ؛ ونحن نَرْغَب إلى الأميرِ فى أنْ يسألها عَنّا ، ليقفَ على منازِلِنا » . فسألهم عنهم ، فقالوا : « قد عُرِضَت العَدالةُ على أكثرهم فامتَنَع منها » [٣] .

فأمرَهم أحمد بن طولون بالجلوس ؛ وسألهم تعريفَه ما قَصَدوا له ؛ فقالوا : « ليس لنا أن نَسْأَلَ الأمير مخالفةَ ما أَمَر به فى يوسف بن إبراهيم ، لأنه أَهْدَى إلى الصواب فيه ، ونحن نَسأله أن يُقدِّمنا إلى مَا اعْتَزَم عليه فيه : إن آثَرَ قتْلَه أن يَقْتُلَنا ؛

---

(١) المعاملين : يراد بهذه الكلمة : من يعملون فى أرض الدولة على أن يؤدوا إلى السلطان فى كلّ سنة مقدارًا معينا من غلتها . (ج) .

(٢) لدى البلوى فى سيرة أحمد بن طولون ص ٥٤ : « باب الجبل : باب من أبواب قصر ابن طولون . وكان لكل باب اسم فمنها باب الميدان ، ومنه كان يدخل ويخرج معظم الجيش ، وسمى باب الصوالجة . وباب الخاصة ، وكان لا يدخل منه إلا خاصّته . وأما مايلى المقطم فسمى باب الجبل » .

(٣) البلوى : سيرة أحمد بن طولون ص ٢٣٧ – ٢٣٨ . والعدالة : تزكية الشهود عند القاضى وتعديلهم ، أى أن يقول : إنهم عدول ، وكانت من وظائف القضاء . (ش) .

وإنْ آثَرَ غيرَ ذلك أن يُسْلِف بنا ،[١] وهو فى حِلٍّ وسَعَة منه » ، قال : « ولم ذلك ؟ » ، فقالوا : « لنا ثلاثون سنة ما فكَّر فى ٱبتياع شيءٍ مما ٱحتَجْنا إليه ؛ ولا وَقَفْنا ببابِ غيْرِه . ونحنُ والله أيُّها الأمير نَرْتَمِضُ [٢] البَقَاء بعده من السَّلامة من شَئْ من المكروهِ وَقَع فيه » ، وعجوا بالبكاء بين يديه . قال أحمد بن طولون : « بارَكَ الله عليكم فقد كافأْتُم إحسانَه وجَازَيتم إنعامَه » ، ثم قال : « علىَّ بيوسف ابن إبراهيم » ، فأُحْضِر . فقال : « خُذُوا بيد صاحبِكم وانصرِفوا » . فخرجوا معه ؛ وانصرف بهم إلى منزله » [٣] .

* * *

المؤلف
وبعض التجار

١٤ - قال :

« وطالبنى بعضُ عُمّالِ الخراج بمصر بمالٍ زاد على مافى حاصلى ؛ فاحتجت إلى مُعاملة بعض التجار عليه ؛ فدُلِلتُ على رجل من أهلِ الشام يعامل برهُون ؛ فصار إلىّ - وأنا فى بيت المال - منُه شيخٌ حَسَنُ الصورة جميلُ اللِّقاء ، فقال : « إلى كم تحتاج ؟ » قلت : « إلى مائتَى دِينار » . فأخرج من كُمِّه مالا فوَزَنه ، واستزَاد من غلامٍ كان معه دنانيرَ حتى أكمل المائتين ، ثم سلَّمها إلىّ واقتضَانى خطًّا بها ، وقال : « قد كُفِيتُ مؤونة الرّهن » ، فقلت : « فكيف أكتُب الخطَّ ؟ » ، قال : « بمائتى دينارٍ كما أعطيتك » ، فقلت له : « سبيلُ المعاملة غيرُ هذا ! » ، فقال : « والله لا قَبِلتُ منك فيها رِبْحًا ، ولو وهبتُها لك لكان من أصغرِ حقُوقك علىَّ » ، ثم قال لى : « تعرفُنى ؟ » ، قلت : « لا ! » .

قال : « ركبتُ مَرْكَبًا أريد الفُسطاط من تِنِّيس [٤] ، وحملت فيه تجارةً لى

---

(١) يسلف بنا : يبدأ بنا ويجعلنا سلفا ، والسلف : المتقدمون . (ش) .

(٢) ارتمض الرجل من الشئ : إذا اشتد فأقلقه كأنه يقف فى الرمضاء ، وهى حر الحجارة من شدة حر الشمس . (ش) .

(٣) البلوى : سيرة أحمد بن طولون ص ٢٣٨ ، ياقوت : إرشاد الأريب ج ٢ ص ١٥٧

(٤) تِنِّيس : جزيرة فى بحر مصر بالقرب من البرّ ، مابين الفرما ودمياط ، والفرما فى شرقيها ، وبها تعمل الثياب الملونة والفرش البوقلمون . ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٥١

ماكنت أملُك غيرَها ، حتى إذا بلغتُ الْمَحَلَّة ووازَيْت ضياعا كانت فى يدك ، كُسِر بنا ، وغَرِق جميع ما أملكه ، وسلمْتُ بحُشاشة نفسى [١] . فجلستُ على الشطِّ أبكى وأنتحِب ، فأقبلتَ فى جماعة معكَ فسأَلتَنى عن حالى فأخبرتك بها ، فبَثَثْت فى حَشْد من يغوُص على المركَب ومافيه وحطَطْتَ على الشّط ، فأَخرجوا بَزًّا كان لى وتَلِفَ ماسواه ؛ واستحلفتنى على ماذهبَ لى فأخبرتُك به – وكانت قيمتُه سبعين دينارا – فقسَّمْتها لى على وُكَلائك وكتَّابك فلما حصلَتْ لى أعطيتنى دنانيرَ من عندك وقلت لى : « هذا أَرْشُ [٢] ما لحِقك فى الثِّياب» ، وأمرتَ أن يُكْتَرى [لى] إلى تِنيّس ، وكتبت لى إلى جماعة معامليك بتنيس بمالحقنى ، وبمعونتى على أمرى ، فرجع بك إلىَّ ما أَمْلِكُ ، واكتسبت جاهًا بتنيّس تضاعف مالى به ، وحسنت معه حالى »

« وأخذ خطِّى بالمال وانصرف » .

* * *

١٥– وسمعت أبا العباس أحمدَ بن بِسْطام يُحدِّث أبا الطيب أحمد بن على ، قال :

أحمد بن بسطام وصاعد

« لمّا سَخِط الموفَّق [٣] على صاعدٍ [٤] وكّل به من يطالبه ، وأَقَرَّنى والطائىّ [٥] على ماكنا نتقلّده له . وكان صاعدٌ محسنًا إلينا ، جميلَ العِشْرة لنا ،

---

(١) الحشاشة : بقية رمق الحياة والروح فى المريض والغريق وماشاكلهما . (ش) .

(٢) الأرش : دية الجراحات والجنايات التى ليس لها قدر معلوم وهو الذى نسميه « التعويض » . (ش) .

(٣) هو أبو أحمد طلحة بن الخليفة المتوكل على الله . كان من أجلّ ملوك بنى العباس رأيا وأسمحهم نفسا وأحسنهم تدبيرا . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٧٩

(٤) صاعد بن مخلد : وزير ، من أهل بغداد . كان نصرانيا ، وأسلم على يد الموفق العباسى . واستكتبه الموفق سنة ٢٦٥ هـ ، ووجهه فى المهمات ، ولقب بذى الوزارتين . قال الشابشتى : كان من رجالات الناس حزما وضبطا وكفاية وكرما ونبلا ، توفى سنة ٢٧٦ هـ . الشابشتى : الديارات ص ٢٧٠ – ٢٧٣ ، المنتظم ج ٥ ص ١٠١

(٥) هو أحمد بن محمد الطائى : أحد القادة الأمراء فى العصر العباسى ، كان يلى للمعتمد الكوفة وسوادها وطريق خراسان وسامراء وشرطة بغداد وغيرها . توفى سنة ٢٨١ هـ . ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٤٣٢ ، ٤٦٧

فلم نترك شيئا نصل إليه مما خفّف عنه إلاّ بَلَغْناه . وكانت بينى وبين الطائى إحْنَة [١] ، فدعانى الموفّق فى يوم من الأيام – ونحن بواسِط وقد بَلَح [٢] صاعدٌ ، واستنزل المستخرج جميعَ ماوصل إليه منه –، فقال لى : « أحمدُ ! ادُخُلْ إلى صاعدٍ فقل له : أظُنُّك أرْضَيتَ المستخرَج حتّى فَتَر فى مطالبتك ، وتالله لئن لم تخرج مُحْتَجِبَك ، لأتولَّيَنّ تعذيبَك بنفسى ! » .

فدخلت إليه وأدَّيْت الرسالةَ ، فقال لى : « يا أحمد ! والله مابقىَ لى شئٌ ، وما ملكتُ قطُّ ماهو أحبُّ إلىّ من نفسى ، فتقول له : ياسيِّدى ! والله ما أملِك على الأرض ولا فيها دينارًا ولا درهما ولا جوهرًا ، وأنت أولى بالتطوُّل [٣] على خادمك » . فانصرفت من عنده وأنا أخاف أن يُغْرِيَه ذلك الجوابُ . ودخلتُ إليه وقلت له : يقول لك : « ياسيدى ! ما أملك على وجه الأرضِ ولا بطنِها غير مائةِ ألف دينارٍ عند الطائىّ » . فأمر بإحضاره ، فلما مَثَل بين يديه ، قال له : « المائةُ الألف الدينار التى لصاعدٍ عندك ، قد بعث إلىّ يحلِف أنه لا يملك غيرها » . فقال له : « وهى بمدينةِ السَّلام ، فيُنْظِرنى الأميرُ مسافَةَ الطريق ، وأنا أستْسلِف له ما تيسَّر منها من التجار هاهنا ؟ » . فقال له : « اكتُب خطَّك بها » . فكتبه وسلّمه إلى الموفّق ، فسلّمه إلى غلامٍ من خاصَّته ، وانصرف الطائىّ .

فاستقبحت ماصَدَر مِنّى فيه ، وعَظُم فى نفسى لتصديقِه صاحبَه ، وتركِ معارضته بما يدفعُ به المرءُ عن نفسه . فدنوتُ من الموفّق وقلت له : « أيُّها الأمير ! جميع ما أدّيتُه إليكَ عن صاعد مِنى تقوّلْتُه ، وقد قَبُح فى عينى ، وسيدى مخيَّرٌ بين الصفح عنه والعقوبة عليه » . فقال : « أحسنت ! بارك الله عليك » . ثم أمر بردّ الطائى ، فقال : « لِمَ لمْ تتقرَّب إلىّ بذِكْر هذا المال ؟ « فقال : « أيها الأمير ! يمنعنى من ذلك ما توَلاّه من اصطِناعى » فقال له : « ليس يُقْنعنى إلَّا أن تحلف برأسى على هذا المال ، وفى أى وقت دَفَعه إليك » . فقال : « يعفينى

---

(١) إحنة : حقد وعداوة . (ش) .

(٢) بلح : أفلس . (ش) .

(٣) تطوّل عليه : تفضل عليه وأحسن إليه . (ش) .

الأميرُ من ذلك » . فقال : « والله لا فعلتُ » . فقال : « وحقّ رأسِ الأميرِ ماله عندى درهم واحد فضلا عنه ، ولكنى لما رأيتُه قد عاذَ بالدعوى علىّ ، تيقّنتُ أنه لم يبق له حيلة فى المدافعة عن نفسه ، فعملت على تحمُّل هذا المال ، ووالله ما أملكه ، ورجوتُ أن أصِلَ إليه بجاهى ولطيفِ حِيلتى » فاستحضر الموفّق الخطّ ودفعه إلى الطائى ، فقال له : « خَرِّقْه » . ثم تقدّم بإعفاء صاعد من المطالبة » .

* * *

نجاح بن سلمة وابن تميم

١٦ - وكان نجاحُ [١] بن سَلَمة - مع مايؤثَر عنه من زَعَارة أخلاقِه [٢] ، وقبح تسلُّطه - يحبُّ التبُّسط على طعامه ، ويحسن المكافأة عليه . فحدثنى يعقوب بن إسحاق بن تميم ، قال [٣] :

أقام إسحاق والدى ببغدادَ خمسًا وعشرين سنة فى رفع حِسابه ، ينقُض الكُتّاب جِماعَاته ويسلّطون الإعناتَ عليه ، قال لى يعقوب ، فحدثنى أبى : أنّ أغلظَ الكتّابِ بأسْرهم كان عليه ، نجاحُ بن سلمة . قال : « فلما أفرط علىّ سوءُ تحكمه ، جلست فى منزلى ، فمرَّ به اسمى ، فقال : « قد عزم إسحاق بن تميم على أن يتربَّص بنا كما كان يتربَّص بمن كان قبلنا ؟ » . ثم نظر إلى بعض المضمومين إليه فقال : « بكِّر إلى إسحاق بن تيمم فأحْضِرْه الدارَ إلى أن أنصرف » . قال : فباكرنى فَظٌّ من الجُنْد لم أملكْ نفسى معه حتى صار [بى] إلى دار نجاح ، فوجدناه قد ركب .

فحصَّلنى على البابِ وجلس معى [٤] ، وتعالَى النهار واشتدَّ جُوعى . فقلت

---

(١) نجاح بن سلمة البغدادى ، قدم دمشق فى صحبة المتوكل ، وولى له ديوان التواقيع . واختص به وعظم قدره إلى أن حسده جماعة وعملوا عليه إلى أن سخط عليه ومات تحت الضَّرْب فى سنة ٢٤٥هـ . الذهبى : تاريخ الإسلام وفيات سنة ٢٤٥ هـ .

(٢) الزعارة : الشراسة وسوء الخلق . (ش) .

(٣) انظر فى يعقوب بن إسحاق : المغرب فى حلى المغرب - الجزء الخاص بمصر - ص ٨١ - ٨٢

(٤) حصله على الباب : يريد ، وصل به إليه وأبقاه . (ش) .

له : « آمضِ معى إلى المنزل لنأكُل جميعًا ونرجع ! » فأبَى فقلت لحاجب نجاح – ورأيته متمكّنًا من داره :– « أصلحك الله ، إنى قليل الصبر على الجوع ، وأخاف أن يتأخّر الأُستاذ وأضعُفَ عن حُجتى فى حضوره لغلَبَة الصَّفْراء علىّ ، وقد سألتُ هذا الرجل أن يُطْلق لى الذهابَ إلى منزلى لآكُل وأرجعَ فأبَى » ، قال : « لم لا تأكل هاهنا ؟ » . وأجلسنى فى بُشَّخانة (١) فيها ، واستحضر الطعام ، فأُحضرت مائدةُ نجاح بن سلمة ، ولم يبق حُلوٌ ولا حامضٌ ولا حار ولا باردٌ إلا نُقِّل علينا . حتى إذا بلغتُ إلى الحَلْواء من الطعام، دخل الدار نجاحٌ فجلس فى المجالس ، ورآنى فى دخوله ، ومكانى من البشخانة ، فبعث إلىّ غلاما له [يقول] : « بحياتى استَتِمّ أكْلَك ولا تتجوّزْ فيه » . فأقمت حتى فرغ الطعامُ ، وجاؤنى بالغُسْل والبَخُور ، ثم قمتُ . فلما رآنى ضحك إلىّ وقال ؛ « من علّمك على هذا ؟ » ، قلت : « التوفيق » ، قال : « أجل ! » ، ثم قال لى : « ارفع حِسابك كيف شئتَ واحْشُه ، فقد أمَّنك اللهُ من اعتراضك بشئٍ تكرهه » .

قال يعقوب : قال لى أبى : « فغدوتُ إليه بحسابى ، فوالله مازاد على التوقيع فى الجِمَاعات بإمضائها وتخليدها . ثم قال : « متى تعزم على بلدك ؟ » ، فقلت : « ياسيدى ! إنما أنتظرُ فيه إذْنك ، فكل شئ لى مفروغٌ منه » ، فقال : « اجعْله بعد صلاة الجمعة » ، قلت : « أَفعلُ » . ثم قال لى : « تروح إلىّ لألقاك فى حوائجَ لى ؟ » ، فقدّرتُ أنْ يحمّلنى فى الحوائج غُرْم الألف الدينار .

فلما رحتُ إليه . دخلتُ وهو خالٍ ، فقال لى : « إنك ترجع إلى بلد قد يَئِس منك فيه أهلُه ، فأَدخلَ الجارُ من جيرانِك الخشبَة فى حائِطك ، والجارُ فى البستان قد تحيّف حدودَك (٢) ، فهب لى ما بينَك وبينهم » . قلت : « أفعل » .

---

(١) فى نسخة ع ، رسمت الكلمة هكذا : « بنحانحه » وقد أشار إليه محقق ش بقوله : « فى الأصل : بنحانحه ، فى الموضعين ، وأقرب ما أعرف إلى هذا الرسم هو : « بشخانه » قال الخفاجى : يقال لها الناموسية ، عامية معربة « بشه خانه » ، أى بيت البعوض ، أو كما أخبرنى بعضهم أنها بيت الحاجب » .

(٢) تحيف الشئ : نقصه وأخذ من جوانبه وحافاته وأطرافه . (ش) .

قال : « وترى ببلدك جماعة قد ارتفعُوا ، أبناءَ خَامِلين ، فلا تنهرْهم بدِقّةِ [١] أُصولهم ، وانصرِفْ [٢] عما كان عليه سَلَفُهم ، فإنه يزرعُ لك المقتَ فى قُلوبهم » . قلت : « أفعلُ » .

قال : « وأصحابَ البريد ، فاحذَرْ أن يرِد فى كتُبهم ذكرٌ لك بخير ولا شرٍ » . قلت : « أفعل » .

ثم أوْمَى إلىّ يعانقُنى ، قلت : « ياسيدى ! حوائجَك ؟ » . قال : « هى ماعددته عليك ، إنك قد حللت منّى بانبساطك محلَّ القرابة الذى أُسَرّ بصوابه ، ويَغُمُّنى زَلَله ، فإن حَزَبَك [٣] أمرٌ فى بلدك فلا تعدِل به عنى ، وأنا أستودعك الله » .

« فانصرفت عنه وأنا على غايةٍ من الشكر » .

* * *

محمد بن يزيد ومسافر

١٧ - وحدثنى محمد بن يزيد - وكان حَسَن التقشُّف ، سديدَ الرأى - قال :

أُطْلِق جماعةٌ من حبس أحمد بن طولون كانت قد وقعت بهم ظِنّةٌ بالتلصُّص ، وكانوا ينزلون كُورة أَهْناس . فإنى عند بعض أصحابِ الأكسِيَة حتى وافاه غلامٌ أصفر ، خبيثُ المنظر ، متمكِّن من نفسه ، من الخارجين من الحبس ، فرحَّب به ، وجلس عنده ، وهَنَّأه بسلامته . ثم سأل عن حالِه ، فقال : « خرجتُ من الحبس كما ترانى ، وما معى نفقةٌ تبلّغُنى منزلى » .

فقلت له : « ما ٱسْمك ؟ » ، فقال : « مسافر » ، فقلت له : « يافتى ! قدِّم الله فى أمورك ولا تعدِلْ عنه ، فإن الراحةَ فى ظلِّه » ، فقال لى : « ياسيدى ! الحقُّ فيما قلتَه ، والنفسُ بالسوء ، والتوفيق إلى الله دون خَلْقِه » ، فأعجبنى جوابه ،

---

(١) دقة الأصل : خسته ولؤمه . (ش) .

(٢) ج ، ع : « وللصدق » والمثبت رواية ش .

(٣) حزبه الأمر : اشتد عليه وضغطه . (ش) .

وقلت له : « كم يكفيكَ إلى منزلك ؟ » فقال : « دينار ! » ، فدفعته إليه وقلت له : « إذا حدَّثَتك نفُسك بِإخافَةِ السبيلِ فٱبعث إلىَّ حتى أُمْسِكَ من رَمَقِك ، وأُكُفَّ فاقَتَك » .

فما مضى شهر حتى اضطربت ناحية أَهْناس والبَهْنَسا [١] بتسَلُّط رَجُلٍ من اللصوص – في جمع كثير ، على كثيرٍ من المواضع ، وكَبْسِهم الضياعَ . وكانت لى أسْلافٌ [٢] بسُمُسْطا [٣] ونواحيها ، فخرجت لقَبْضها فى رُفْقةٍ من التّجار ، قَدْ حملوا البَزَّ والطِّيب ومايُحتاج إليه للأرياف . فإنّا بنواحى المحرَّقَة ، حتى لقينا قطعةً من اللصوص ، فساقتنا بأسْرِنا إلى موضع منقطع عن المارّة ، وفيه شابٌّ أصفرُ راكبَ فرسٍ ، ومعد مقدار خمسة فوارس ، فعُرِضت الجماعةُ عليه إلى أن بَلغنى ، فتأملتُهُ فوجدته « مسافرًا » ، فأكبَّ على رأسى وتَحَفَّى بى [٤] ، ثم قال لأصحابه : « أخطأ والله حَزْرُكم [٥] ، هذه رُفْقة شيخى وسيّدى ، ووالله لادخَلَ إلىّ منها شىء » . وسار معنا حتى أخرجنا إلى الأمن ، ثم قال لى : « أنا أعلم أنّك لا تأكُلُ طعامى ، ولا تقبلُ شيئًا منّى ، وقد والله ياسيدى حبَّبْتَ إلىَّ مجانبةَ ما أنا بسَبِيله ، فنشَدْتُك الله لَمَا جعلتنى طريقَك فى الرَّجْعَة ! » . فتضمنت له ذلك .

ودخلنا مدينة أهْنَاس ، فشاع خَبَرُ ما أولانى فى الناس . وكان المتقلِّدُ لها رجلاً من أصحاب أحمد بن طُولون – يُعْرَف بفَهْم – مُتقدِّمًا عنده ، أثيرًا لديه [٦] فبعث إلىَّ ، وعَرَف مذهبى ، فقال : « قد أحفيتُ المسألةَ عن هذا الغُلامِ ، فرأيتهُ لا يرى القتْلَ ، ولا هَتْك الحريم ، وإنما يتعلَّقُ بأطرافِ الأموال ولا يبلغ

---

(١) البهنسا : مدينة بصعيد مصر غربى النيل . ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٥١٦

(٢) الأسلاف : القروض ، جمع سلف وهو القرض بغير فائدة . (ش) .

(٣) سمسطا : قرية بالصعيد الأدنى من البهنسا على غربى النيل . ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٢٥٠

(٤) تحفى به : احتفى ، وبالغ فى إظهار السرور والفرح به ، وأكثر السؤال عن حاله . (ش) .

(٥) الحزر : التقدير ، حزر الشئ : قدّره بالظن . (ش) .

(٦) الأثير : المحبوب المقرّب المقدّم على غيره . (ش) .

الاِجْتِياح[١] . وأنا أسألك أن تَسْفِرَ بينى وبينه[٢] ، فإنى أُؤَمّنه وأُكرِمه وأقلدُّهُ سِيارَة[٣] البلد » . فرجعتُ فى حاجة فهْم إليه ، فألقيته والجماعةُ بين يديه ، فأدَّيت إليه رسالتَه ، وأعلمته أنّ هذا الرَّجلَ صحيح الضَّمان ، فقال : « ياسيدى ! مابينى وبينه فى الأعمال إلاّ أُنْسُ الناس به » . ثم قال لأصحابه : « مَنْ يساعدنى على الخروج إلى الله عز وجل ؟ » ، فقالوا بأجمعهم : « نحن ! » . فسار معى حتى إذا قَرُبنا من أهناس ، وضَع حبلًا فى عنقه وقال : « ادخُل بى فى زِىّ الأسْرَى وهذه الجماعةِ » ، فدخلوا ، والناس يبكونَ لما اتَّفق لهم من حُسْن الهداية ، ورأى الناسُ عَجَبًا من سَوْق شيخ مثلى ضعيفٍ رجلاً قد أعجز خَيْلَ السلطان . فطلب فهْم أن يقبلَ له خِلْعةً ، فامتنع من ذلك ، وأضاف أصحابه إلى فَهْم ، وأقام إلى وقت الحجّ فخرجَ إلى مكة راجلًا ، ثم فقدتُه » .

* * *

المقرى وراعى غنم

١٨ – وحدَّثنى أبو حَبِيب المَقَّرِىُّ ، قال : « ضاقتْ أحْوالى ، فلم يبقَ[٤] لى إلّا جارية أُحبُّها ، ومنزِلا أسكنُه . فبعتُ المنزلَ بألف دينار ، وخرجتُ إلى مكة بالجارية ، فقلت لها : « يكون هذا المال فى وسطك » فكانت إذا نزلت فى منزلٍ حَفَرتْ فى خِيْمتها حَفِيرةً ، وأودعت المالَ فيها وطَمَّتها[٥] . فإذا نُودِى بالرحيل أثارته وشَدَّتْه فى وَسَطها .

قال : فاتَّفق أنْ رَحَلنا عن مَنْهَلٍ ونسيَتِ المالَ فى الحفْرة ، فأخبرتْنى الجاريةُ بذلك ، قال : فحارَ فِكْرى ، وطاشَ رُوعى[٦] ، ولم أدرِ ما أعمل . ودخلنا مكّة ،

---

(١) الاجتياح الاستئصال والمحق . (ش) .

(٢) سفر بين المتخاصمين : سعى بينهما فى الإصلاح . (ش) .

(٣) سيارة : مصدر من « سار » دال بصيغته على الحرفة ويظهر أن سيارة البلد كانت وظيفة فى هذا العهد ، يقصد بها حسن السير بالبلد ، وصيانة الأمن والنظام به . وقد استعمل صاحب « النجوم الزاهرة » هذه الكلمة بهذا المعنى (ج) .

(٤) كذا فى ش ، ع . وفى ج : « فلم تُبْقِ » .

(٥) طم الحفرة : كبسها ، بالتراب . (ش) .   (٦) الروع : القلب . (ش) .

فحدثَتْنى نفسى ببَيْعها فلم يُطِعْنى قلبى . فلما رَجَعنا ونزلنا المَنْهل الذى خلَّفت فيه الكِيسَ ، رأيت صحراء ، وغلامٌ على رابية يرعى غُنيماتٍ له ، وأقبلتُ أدور وأنُظر إلى الأرض ، فقال لى : « ويْحَكَ ! ماتطلُب ؟ » ، قلت شيئًا أوْدعته أرضَ هذا المَنْهَل » ، فقال لى : « صفْه لى » ، قلت : « كيسٌ أحمرُ فيه مال » ، فقال : « ومالِىَ فيه إن دَلَلْتك عليه ؟ » ، قلت : « نصفُه ! » ، قال : « هاهو ذاك فى الرابية » . فلما رَأى تحيُّرى فيه ، قام حتى أخرجه ووضَعه بين يدىّ ، فحمدت الله ، وقسمت الكِيسَ قسمين وخيّرته أحَدَهما ، فقال لى : « إنى أرى قِسْمِى منه كثيرا ، وأنا أكتفى بنصف أحَد القسمين ، فقسمته بقسمين ، فقال : « تَقْسِمه أيضًا بقسمين » ، ففعلتُ ، فقال : « ما أعجب أمرك ! أتُرْكُه كله حرامًا ، ونصفَه حَلاَلًا ، وآخذ منه شيئا ! هذا مالا يكون ، انصرف بمالِك » . فقلت له : « ياغلام ! أنت حرٌّ أو مملوك ؟ » ، فقال : « مملوك » ، فقلت : « لمن ؟ » ، فقال : « لشيخ هذا الحىّ » .

فدخلت الحىّ فألفيت الشيخَ والناسُ عندَه ، فقلت له : « رأيتُ غلامًا فى المنهل يرعى غُنَيْماتٍ وأسألك أن تَبيعنيه » ، فقال : « اشتريتُه بعَشرة دنانير » ، فقلت : « أنا آخُذُه بعشرين » ، فقال : « إن لم أبِعْه ؟ » ، قلت : « أُعطيك به ثلاثين دينارًا » ، فقال لمن حوله : « أمَا تسمعون مايقول ؟ وما يحمِلُك على أن تبذُل به هذا الثَّمن ؟ » ، فقلتُ : « جمعَ علىّ ضالَّةً ، فنَذَرْتُ أَنْ أُعْتِقه وأبتاعَ الغنمَ [التى] (١) يرعاها له ، وأُمِلِّكهُ إيّاها » ، فقال : « نَذَرْتَ أن تفعل به هذا لَفَعْلةٍ واحدةٍ من الجميل أوْلاكَهَا (٢) ، ولنا فى كل يوم منذ ملكناهُ حسنة تْقتضى أكثرَ مما نأتيه له ؟ وأنا أُشْهِد الجماعةَ أنه حرٌّ لوجه الله ، وأنّ مايرعاه له » .

فانصرفت عن الشيخ وقد بلَغ بى ما أمَّلتُه له » .

* * *

---

(١) من ج .

(٢) أولاه الجميل : فعله ابتداء من غير مكافأة على جميل سبق . (ش) .

١٩ – وقلت يوما لأحمد بن محمد المعروف بابن أبى عِصْمة كاتب أحمد ابن طُغَان – وكان لى صديقا مُصافِيا -: « قد كثَّر الناس فى إصَابتك[١] مع آبنِ طُغَان ! » ، فقال : « ما أخطَئوا فى التكثير ، وكان صاحبى سَمْحًا ؛ [٢] ولقد أصابنى منه فى جهةٍ واحدةٍ ثلاثون ألف دينار » ، فسأَلته عن تلك الجهة ، فقال : « كان لا يُمِسكُ مالًا ، ولا يعتقِدُ ذَخِيرَة ، [٣] فقال لى يوما : « لم يُصبح فى حاصلى درهمٌ واحد ، فاستسلفْ لى شيئًا أنفقه » . فمضيتُ إلى منزلى فحملتُ إليه ألفَ دينار . فلما وضعتُها بين يديه ، فَتَح الكِيسَ وقلّب مافيه ، فلما رأى الدنانير صِحاحًا جيدة ، قال : « ماهذه دنانير صَيْرَفِيٍّ ، فبِحياتى ممَّن أخَذْتها ؟ » ، فقلت له : « كانت عندى » ، فقال : « ماظننت هذا موضعك ! » ، وسكت .

وكان له فى كل شهر ألفَ دينار نُزْلٌ ، [٤] فجئتُه به عند آستيجابه إيّاه ، فقال لى : « ماهذا ؟ » ، قلتُ : « النُزْلُ » ، فقال : « آقضِ به دنانيرَ الرَّجُل » . ثم جئته به مرة أخرى بنُزْل الشهر الثانى ، فقال : « اصرِفْه إلى الرّجُل » ، قلت : « قد قضيتُه ! » ، فقال : « اصرفه إليه كما آمُرك » . فلم يزل يفعلُ بى هذا حتى مضى ثلاثون شهرا حصَّلت فيها ثلاثين ألف دينار » .

ابن أبى عصمة وابن طغان

* * *

نصرانى ومستتر

٢٠ – حدثنى هارون بن مَلُّول ، قال ، حدثنى ياسين بن زُرَارَةَ ، قال : « كان ببعض أريافِ مصر نَصْرانيٌّ من أهلِها كثيرُ المالِ ، فاشِى النِّعمة ، سَمْحُ النَّفْس ؛ وكانت له دارُ ضيافةٍ ، وجِرَاياتٌ [٥] واسعةٌ على ذوى السَّتْر

---

(١) كثروا فى إصابتك معه : أى أكثروا وتزيدوا فى تقدير ما استفاده من الأموال . (ش) .

(٢) السمح : الجواد السخىّ السهل العطاء . (ش) .

(٣) الذخيرة : مايدخره الرجل ويحفظه . واعتقدها : أمسكها وجمعها وكأنه عقد عليها عقدة . (ش) .

(٤) النزل : رزق العامل وأجره : المرتب (ش) .

(٥) الجراية : الصدقة الجارية التى لاتنقطع . (ش) .

بالفُسطاطِ . فهَرب من المتوكّل (١) رجلٌ - كَنَى عن اسمه - خطيرُ المنزلة . لميلٍ كان من المنتِصر إليه ، وتبرّأ من حاشيته ولبسَ جُبّة صوف ، فانتهى به المسير إلى مصر . فلما دخلها رأى فيها كثيرا من أهل بغداذ ، فخاف أن يُعرَف فنَزَع إلى أرْيافها (٢) ، فانتهى به المسير إلى ضِيَاع النَّصرانى ، فرأى فيها منه رَجلًا جميلَ الأمر . وسأله النصرانيُّ عن حاله ، فذكر أنّ الاختلالَ (٣) انتهى به إلى ماظهر عليه ، فغيَّر هَيْأَتَهُ ، وفوَّض إليه شيئا من أمره فأحكمَه فيما أسْنَدَ إليه واضْطَلَع به . ولم يزل حاله يتزايد عندَه حتى غلب على جميع أمره ، وقام به أحسن قيام ، فكان محلُّ الرجلِ الهاربِ من النصرانىّ ، يفضُل كلّ ما ذَهَبَ له .

ووَرَد على النصرانىّ مُسْتَحِثٌّ بحَمْلِ مال وجَبَ عليه (٤) ، [وسأله] النصرانيُّ عن خَبَر الناس بالفُسْطاط ، فقال : «ورد خَبَر قتلِ المتوكل وتقلُّد المنتصر ، ووافَى رسولٌ من المنتصر فى طلبِ رجل هرَب فى أيام المتوكل يُعرَف بفلان بن فلان ، ويُوعِزُ إلى عمّال مصر والشام بأن يتلقَّوْه بالتَّكْرِمة والتَّوْسِعِةِ ، فيلحقَ أميرَ المؤمنين فى حال تُشْبِهُ محلّه عنده » .

فعدل النصرانى بالمستِحِثِّ إلى بعض من أنزله عليه ، وخلا الهاربُ بالنصرانىّ فقال : « أحسن الله جَزَاءَك فقد أولَيْتَ غايةَ الجميل ، وأحتاج إلى أن تأذنَ لى فى دُخول الفُسْطاط » ، فقال : « ياهذا ! إن كنتَ استقصَرْتَنى (٥) فاْحتَكِم فى مالى ، فإنى لا أردُّ أمرَك ، ولا أزول عِن حُكْمك ، ولا تنأى عنى ، فقال له : « أنا الرجلُ المطلوبُ بالفُسطاط ، وقد خَلّفتُ شَمْلا جَمًّا ونعمةً واسعة ، وإنما عَدَلَ بى

---

(١) هو أبو الفضل جعفر بن محمد بن هارون ، بويع له سنة اثنتين وثلاثين ومائتين ، فأظهر الميل إلى السُّنّة ، ونصر أهلها ، ورفع المحنة - التى نشأت من القول بخلق القرآن ، وكتب بذلك إلى الآفاق .

ومات مقتولا سنة ٢٤٧ هـ . السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٩٩

(٢) نزع إلى الريف : تباعد إليه فى رحلته (ش) .

(٣) اختل الرجل : افتقر واحتاج ، والخلة : الحاجة والفقر . (ش) .

(٤) المستحث : الذى يستحثه ويستعجله . (ش) .

(٥) استقصره : وجده مقصرا . (ش) .

الخوف على نفسى » ، فقال له : « ياسيدى ! فالمالُ فى يدك ، وما عندك من الدوابِّ فأنت أعرفُ به منّى ، فاْحتكم فيه » فأخذ بِغالا وما صَلَح لمثله ، وخرج النصرانى معه ، وقدّم كتابًا إلى عامل المَعونة من مُسْتَقَرِّه » فتلقّاه عاملُ المعونة [١] فى بعضِ طريقِه ،ووصَّاه وجميعَ العُمّال بالنصرانّى . وصار إلى الحضرة ، فأصدر إليهم الكتُبَ فى الوَصَاة به ؛ إلى أن قدم بعضُ العمال المُتَّجرة [٢] ، فتتبّع النصرانىّ ورامَ الزيادةَ عليه ، فخرج إلى بغداذ .

قال لى هارون : إن ياسين قال له : إن النصرانى حَدَّثه ، : أنه دخل بغداذ فلم يرَ بها أوْفَى محلا وأكثر قاصدًا منه .

« ثم استأذنت عليه وعنده جمعٌ كثير ، فخرج أكثرُ غِلْمانه حتى استقبلونى ، فلما رآنى قام على رجليه ثم قال : « مرحبًا بأستاذى وكافِلِى والقائم بِى حين قَعد الناس عنّى » ، وأجلسنى معه . وانكبَّ علىّ ولدُه وشَمْله ، وأنا أتأمّل مواقعَ الإحسان من الأحرار . وسألنى عن حالى فى ضِياعى ، فأخبرته خبر العامل ، وكان أخوه فى مجلسه ، فنظرَ إليه من كُنَّا عنده وقال له : « كنتُ السبب فى تقليدِ أخيك ، فصار أكبرَ سبب فى مَسَاءتى ! » . فكتَب من مجلسه كتابًا إليه بجليَّةِ الخبر وأنفذه . وأقمتُ عنده حوْلا فى أرغد عِيشة وأعظم تَرَفُّهٍ . وورد علىّ كُتُب أصحابى ، فخبّرونى بانصراف العامل عن جميع ماكان اعترضَ عليه فى أمرى ، وأخرج أمرَ السلطان فى إسقاط أكثر خَرَاج ضِياعى ، والاقتصاربى على يسيرٍ من مالها .

قال ياسين ، فكتب النصرانىُّ ببغداذ حجة [٣] أشهدَ فيها على نفسه أنّ أسهُمَه فى جميع الضياع التى فى يده - وسمّاها وحدّدَها - لهذا الرجل الذى كان هرب ، وصار بها إليه ، فقال له : « قد سوَغك الله هذه الضياعَ [٤] ، فإنى أراك

(١) عمل المعونة كان من أكبر وظائف الدولة كولاية الخراج . (ش) .

(٢) يريد العمال الذين يجعلون سلطان عملهم تجارة ، فيظلمون الناس ليتكسبوا منهم . (ش) .

(٣) الحجة : كتاب يكتب ليكون وثيقة وحجة . (ش) .

(٤) سوغه الشئ ، أى : جعله له سائغا سهلا . (ش) .

أحق بها من سائرِ الناس » ، فامتنع الرجلُ من ذلك ، وقال له : « عليك فيها عاداتٌ تُحسِّن ذكرَك ، وتردُّ الأضغانَ عنك ، ولست أَقطعُها بقَبْض هذه الضياع عنك » .

ورجع النصرانى إلى الفسطاط فجدّد الشهادة له فيها . فلما تُوفِّى النصرانىّ أقرَّها فى يد أقاربه ، ولم يزالوا معه بأفضل حال » .

* * *

يحيى البرمكى والفضل بن سهل

٢١ - حدثنى أحمد بن أبى يعقوب عن أبيه ، قال :

« كان يحيى بن خالد بن بَرْمَك [١] قد تبنّى الفضلَ بن سهلٍ [٢] وأجراه مُجْرَى الوَلَد - ونظر إليه ولَدُه بعينِ الأخِ لهم - . فضمَّه إلى المأمون [٣] . وكان يحيى بن خالد حَسَنَ المعرفة بالنجوم ، والفضلُ بارعًا فيها ، فاتَّفقا على ما تُوجِبهُ النجوم فى مُدَد البرامكة [٤] ، وتبيَّنا سعادةً تنتهى إليها حالُ الفَضْل ، وكان كلُّ واحدٍ منهما كالمشاهد لما انْتَهى إليه .

---

(١) يحيى البرمكى : هو أبو الفضل يحيى بن خالد بن برمك . وكان بَرْمَك من مجوس بلخ . وساد ابنه خالد وتقدم فى الدولة العباسية وتولى الوزارة لأبى العباس السفاح ، وكان يحيى من النبل والعقل وجميع الخلال على أكمل حال . وكان المهدى قد ضم إليه ولده هارون الرشيد وجعله فى حجره .

فلما استخلف هارون عرف له حقه ، وولاه الأمر ، ودفع إليه خاتمه ، وجعل إصدار الأمور وإيرادها إليه ، إلى أن نكبت البرامكة وحبس يحيى ، ولم يزل فى حبسه إلى أن مات سنة تسعين ومائة . ابن خلكان ج ٦ ص ٢١٩

(٢) هو الفضل بن سهل أبو العباس السرخسى . أسلم على يد المأمون فى سنة ١٩٠ ووزر للمأمون ، وكان يلقب بذى الرياستين لأنه تقلد الوزارة والسيف ، ولما ثقل أمره على المأمون دس عليه خاله غالبا المسعودى الأسود فقتله سنة ٢٠٢ . ابن خلكان ج ٤ ص ٤١

(٣) المأمون : هو عبد الله أبو العباس بن الرشيد ، وأمه أم ولد اسمها مراجل . كان أفضل رجال بنى العباس حزما وعزما وحلما وعلما ورأيا ودهاء وهيبة وشجاعة وسؤددا وسماحة ، وله محاسن وسيرة طويلة ، لولا ما أتاه من محنة الناس فى القول بخلق القرآن . توفى سنة ٢١٨ . السيوطى تاريخ الخلفاء ص ٣٥٥

(٤) المدد : جمع مدة ، ويريد : مدد بقاء سلطان البرامكة . (ش) .

وأوقع الرشيدُ بالبرامكة ، فاعتَصم الفضلُ بمحلِّه من خِدْمة المأمون ؛ وكانت يده تَعْجز عمّا يُصْلِحُ يحيى وولدَه عند الرَّشيد ، فوجه إليه : « سيدى ! قد كَرَبنى أمرُك [١] ، ولستُ أصِل إلى حُسْن الدِّفاع عنك ، فأحِلَّ ذِمَامَهُ فى هذه المحِنْة [٢] ؛ فإنى أَرجو أن أقضيَه عنكَ عندَ ٱنتهائى إلى سعادتى » .

قال ٱبن أبى يعقوب : فحدثنى أحمد بن أبى خالد الأحول ، قال : « ٱتَّصَل بى من ضِيق يحيى ماكدَّر عَيْشى . وذكرتُ إحسانَه إلىَّ ، وحُسْنَ صَنِيعِه بى ، فضاق بىَ العَرِيض . ووجدت ما أملكهُ أربعة آلاف دينار ، فقسمتُها قسمين ، وحملتُ أحدَهما ، وتوصَّلت إلى الدخول إليهم فى مَحْبِسهم ، فوضعتها بين يدى يحيى بن خالد ، فقال لى : « ليس يَحْسُن بنا أن نُغرَّك من أنفسنا ، ولا أن نَعِدَك عنا مالا تَفِى به الأيام لك ، وقد انتهى أمرُنا ، فإن كنتَ تُقدِّر أن أحوالنا تصلُحُ فأمسِك عليك مالك » .

فقلت : « ماذهبتُ فى ذلك إلا لقَضَاء بعض الحق عَنّى » . فأَخذ بيضاءَ [٣] فكتب فيها : « يا أبا العباس أيّدك الله ! هذا رجل خَلَصَ على تجرِبتنا [٤] ، وأحسَنَ بنا مع استحكام يأسِه منا ، وأنا أذكِّرك العهدَ ، وأرغبُ إليك فى قضاء حقّه عنى ، وتخفيفِ ثقْله علىَّ ، أحْسَنَ الله عونك ، وكفاك ما أعْجَزَك » . ثم ثَناها وقطعَها عرْضا بقطعتين ، وقال لى : « احفظ هذا النّصْفَ معك ، ولا تفرطْ فيه فيفوتَك حظٌّ كبيرٌ » .

ثم فرق ذلك المالَ فى قوم ضَعُفَتْ أحوالُهم بما لحقِه ، وانصرفتُ من عنده وقد آيَسَنى من رجوع حاله ، وأعطانى نصفَ رُقْعة لا أقف على ما تُوصِل إليه ، وتَقَضّى أمرُهم [٥] ، ومات الرشيدُ بُطوس ، وغلب الفضلُ بن سهلٍ على المأمونِ بخراسان ، وخلفَه على جميع أمره ، وشَجَر الأمرُ بين الأمين والمأمون [٦] ، فظهرَ

---

(١) كربه الأمر : ضيق عليه الكرب وشدده . (ش) .

(٢) الذمام : العهد والميثاق ، وأحل الذمام : جعله حلالا لا يلتزم عهده وشرطه . (ش) .

(٣) يريد : ورقة بيضاء . (ش) .

(٤) خلص على التجربة ، أى : تبين إخلاصه بعد التجربة والمحنة . (ش) .

(٥) تقضى أمرهم : انتهى وانقضى . (ش) .

(٦) شجر الأمر بين الصديقين : إذا اختلفا وتنازعا وتشاجرا . (ش) .

المأمون عليه ، (١) وصحَّت وِزارة الفضل بن سهلٍ للمأمون ، ووردت بادِرةُ المأمون (٢) بذلك إلى سائر النواحى . وطالت عُطْلتى ، واشْتَدَّت فاقتى ، وفقدت من كان يُؤْثِرنى وينحاشُ إلىَّ (٣) .

فإنى لجالس فى منزلى – فى يوم قد أعوزنى فيه قوتُ يومى ، وعلىّ ثوب خَلقٌ ، وليس لى إلا خِلْعة أركبُ فيها – حتى دخل إلىّ غلامى فقال : « بالباب جماعة من أصحاب طاهر بن الحسين ! » ، فلبستُ ثيابَ رُكوبى ، وأذِنتُ لهم ، وتقدّمهم رئيس لهم تبيَّنت إعظامى فى نفسه ، فقال : « الأميرُ طاهرٌ يسألك المسيرَ إليه » . فنهضتُ ، فلما دخلتُ قدَّمنى وأعظَمَنى وقال : « ورد كتابُ الوزير أيَّده الله علىّ فى حملك إلى حضرته على حالِ تَكْرِمَةٍ ، ومعك نصفُ الرُّقعة التى دفعها إليك يحيى ابن خالد ، وأمرنى بدفع ألفى دينار إليك لحَمُولتك ومُخلَّفيك » (٤) .

فقويَتْ نفسى ، وانفسح رَجائى ، وخرجتُ بعد قبْض المال مع رسول طاهرٍ . فلما دخلتُ إلى الفضل بن سهل ، لقينى بأجمل لقاء ، وسألنى عن نصف الرُّقعة فأحضرتُها ، ثم أسرَّ إلى بعض خَاصَّته شيئًا ، فمضى ، وجاء برقعة فوصلها بها فكَمَلت ، فلمّا استتمَّ قراءَتَها بكى ، ثم قال : « رحم الله أبا العباس ! فما كان أعرفَه بتصرُّفِ الأيام ، واستدعاءِ الشكر فيها ، والتحيُّزِ من الذمِّ بها ! » (٥) .

ثم أَدخلنى إلى المأمون ، ووَاكَد أمرى عنده ، حتى بلغتُ معه إلى أخصِّ أحوالِ كتّابه ، ومَنْ وثق به فى مُهِمِّ أمره » .

٢٢ – وحدّثنى علىٌّ المتطبِّب المعروف بالديدان – وكان حسن المعرفة بكُتُب أفلاطون ورُموزه ، ومبَرِّزًا فى الطّب – ، قال :

على المتطبب
ولد أفلاطون

« خرجت مع رجل – يُعرف بابن فَرُّوخ (٧) – من قوّاد السلطان إلى

---

(١) ظهر عليه : غلبه وفاز به . (ش) .

(٢) البادرة : أوائل من يأتى بالأخبار والبشرى . (ش) .

(٣) انحاش إليه ، يريد : اكترث له ، أو اجتمع إليه . (ش) .

(٤) الحمولة : مايحمل عليه القاعد من الدواب ، والمخلفون ، يريد : أهله الذين يخلفهم وراءه . (ش) .

(٥) تحيز من الذم : تنحى عنه وتأخر . (ش) .

(٦) واكده ووكده : أوثقه . (ش) .

(٧) ش ، ع : « بروخ » والمثبت قراءة ج ، وبهامشها : « لا يعلم قائد لابن طولون بهذا =

طَرَسُوس ، فغنم سَبْيا كثيرًا ، وكان السَّبْى فى دار خرابٍ فى الموضع الذى نزل فيه ، فدخلتُ لتأمُّله ؛ فوجدتُ فى السبْى شابًّا حَسَنَ الصورة جميلَ السَّمْتِ ، وأكثرُ السبى حوله ، ومكانُه منهم مكانُ المولى من المماليك : يتسرَّعون إلى جميع ما أَوْمَأ إليه ، ويكفُونه أخْذَه بنفسه . فكلّمتُ فيه بعض السبْى وسألته عنه ، فقال لى : « هذا من ولد أفلاطون ! » ، فارتحْتُ إليه لانتفاعى بجَدِّه ، ودخلتُ إلى ابن فَرُّوخ فقلت : « هبْ لى من هذا السَّبْى غلامًا » ، فقال لى : « خُذْه » .

فدعوت بغُلامٍ يشتمل على أمرى [١] ، ووصفتُ له الشاب الذى فى السبْى ، وقلت له : « إذا سلَّمه إليك غلامُ ابنِ فَرُّوخ فأطعِمْه ممّا أَعدَدْتَ من طعامى ، وألْبِسْهُ من فاخِرِ ثيابى ، وطَيِّبْه ومكِّنْه من مجلسى إلى أن أنصرفَ إليكم » . وتشاغلتُ بأمور ابن فَرُّوخ إلى آخر النهار ، وانصرفتُ ، فوجدتهُ على الهيئة التى آثرتُها ، ورامَ منِّى مايفعله غِلْمانى من الوقوف ، فمنعتُه من ذلك ، فقال لى بالرومية : « ياسيدى ! ماالذى وعَدَتْك به نفسُك مِنِّى ؟ فإن كان عندى بذلتُه لكَ وكنتَ حقيقًا به ، وإن لم يكن لدى صَدَقْتُك عنه ، ولم أتغَنَّمْ منك مالا يشبهنى تغنُّمُه [٢] » ، فقلت له : « قد اقتبَسْنا من جدِّك أنواراً حَسُن بها أثَره علينا ، ووجب علينا بها وِقايَتُك بأَنفسنا » ، فقال : « والله إنَّ الطِّبَاعَ التى لأسلافِنا معنا ، ولكنَّا شغلناها فى رَعْيِ الخنازير ، فبعُدْتُ بها ممّن قرَّبْتنى له ، وأكرمتنى بسببه » .

فخيَّرته بين الدخول معى إلى مصر ، على أن أُشاطره مِلْكى وعيشى ، أو أحتالَ له فى ردِّه إلى بلده ؟ فاختار رَدَّه إلى بلده . فلَطَفْتُ [٣] له – بإنفاذ بعض من أثق به مع الرُّسُل المتوجِّهين معه – حتى وصَل إلى بلده » .

* * *

= الاسم ، والمعروف محمد بن فروخ ، كان أميرا على برقة من قِبل ابن طولون » . وانظر لذلك : سيرة أحمد بن طولون ص ٧٠ .

(١) يشتمل على أمره : يخدمه فى جميع أمره ويحوطه . (ش) .

(٢) تغنم الشئ : طلب أن يجعله غنيمة بغير جهد . (ش) .

(٣) لطف له وبه : ترفق (ش) .

مد بن سليمان والمؤلف

٢٣ - وكانت تنتابُ [١] عجائزَنا عجوزٌ جميلةُ المذْهب [٢] ، ضعيفةُ الحال - تُعرَف بأمّ محمّد - ، فيجتمعْنَ على كلِّ صالحة ، وكنت أخصُّها بكفايتها . فلمّا دخل محمّد بن سليمان [٣] مصرَ ، نَزَلَ فى ظاهرها ، واستدْعَى الواحد بعد الواحد من أسباب الطُّولونية [٤] ، فاستصفَى مالَه بالسَّوْطِ وعظيمِ الإخافة ، فراعَنى أمرُه ، وخفْتُ أن يلحقنى عَسْفُه .

فإنى لجالسٌ فى يوم من الأيام وأنا خائف ، حتى دخلتْ جاريةُ أمّ محمد العجوزِ ، فسلَّمت علىّ ، فظننتُها والله تَقْتَضِى بعضَ ماعوَّدْتُها ، فقالت : « سيِّدتِى أمُّ محمد تقرأُ عليكَ السلام وتقول : « جاءنى الساعةَ رسولُ آبن عمى وسيِّدى أبى علىٍّ محمّدِ بن سليمان يسألُ عنِّى فعرَّفتُه أنى كنتُ فى كِفَايتك » ، والرسول على الباب يُرِيغُ الوصولَ إليك » ، فقلت : « يَدْخُلُ » .

فدخل شابٌّ حسن الصورةِ يُعرَف بناشِى ، فقال : « جزاك الله خيرًا ! فقد وصفتْك آبنةُ عم سيِّدى بما أرْجو أن يحسُنَ أثَرُه عليك » . ودعا بأصحابِ الأرباع [٥] ، فتقدّم إليهم بأن يَمْنعُوا مَنْ تعرَّضَنى ، فعرَضْتُ عليه بِرًّا فقال : « وأىُّ برٍّ أكثر مما أتيتَه إلينا ؟! » ، وانصرفَ عنَّا .

فرجع إلىّ ناشى هذا برقْعْة بخط ابن سليمان : « سر إلينا لننظُرَ فى أمرك ، ونبلُغَ فيه محبَّتَك ، فإنى أرْعَى لك متقدِّمَ حُرْمَتِك ، ووَكِيدَ أسبابِك ، إن شاء الله » . ومالحقنى منه شئ أكرهه حتى انصرف عن البلد .

---

(١) انتاب القوم : إذا قصدهم ، وأتاهم مرة بعد أخرى . (ش) .

(٢) جميلة المذهب : تعبير من تعبيرات هذا العصر ، يراد به حسن العقيدة والوصف بالتدين . (ج) .

(٣) محمد بن سليمان : أول ولاة مصر بعد زوال دولة بنى طولون ، وكانت ولايته أربعة أشهر . السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٩٦

(٤) أسباب الطولونية : عمال الدولة الطولونية والمتصلون بها (ج) .

(٥) لعله يريد بأصحاب الأرباع المشرفين على أقسام المدينة لحفظ الأمن وتنفيذ أوامر السلطان . وقد تستعمل أحيانا بمعنى أصحاب البيوت جمع رَبْع . (ج) .

ابن أبى شراعة والمؤلف

٢٤ – وكان أبو الفياض سَوَّار بن أبى شُرَاعَة الشاعر صديقًا لى ، ومائلا إلىّ ، فلمّا اعتَزم على الرجوعَ إلى العراق ، سألنى أن أكتبَ له شيئًا من شِعْرى ، فكتبتُ له مقدار خمسين ورقةً منه ، وكان يستحسنه ويُعْجَب به . فصار إلى بغداذ وعَرَضه على جماعة الأحرار [١] ، وأحسن وصفى لهم بسلامة مذهبه ، وطهارة نِيّته .

ودخل محمد بن سليمان مصر ، وقد رُدّ البريدُ بها إلى أبى عُبَيْد الله أحمد بن صالح [٢] ، فسأله عند دخوله إيّاها عن أحمد بن يوسف ، فأحضر أحمدَ بن يوسف – كاتبًا كان لأحمد بن وصيفٍ ، ولآبن الجصّاص [٣] بعده –، فقال له : « تعرف أبا الفيّاض ؟ » ، قال : « لا ! » . فقال لهم : « ليس هذا الرجل الذى طلبتُ » ، فأُحْضِرتُ ، فلمّا رآنى آستشرَف إلىّ [٤] ، وقال : « تعرف أبا الفيّاض ؟ » ، فقلت : « ذَكَرَك الله وإيّاه بكلِّ صالحةٍ ! نعم أعرفه ، وكان خِلًّا لى ! » ، فقال : « هل أنْشَدَك من شعره ؟ :

ظَلِلنا بها نَسْتَنْزِلُ الدَّنَّ صَفْوَه فَيَنْزِلُ أقْباسًا بِغَيْرِ لَهِيبِ »

قلت : « لا ياسيدى ! ولكنّى أنشدتُه إيّاه من شِعْرى ! » ، فضحك وقال : « والله لقد اشتَقْت إلى الدخولِ إلى مصر من أجْلك ! » . وكان والله أفضلَ عَوْن لى على أمورى .

* * *

علان بن المغيرة وفقيه

٢٥ – وحدثنى أحمد بن سقلاب ، قال :

« كان بمَصر رجلٌ من الفقهاء مشهورُ الاِسْم ، وله حَلْقَةٌ عظيمة بالجامع .

---

(١) الأحرار : الأشراف والأفاضل ، جمع حر . (ش) .

(٢) أحمد بن صالح : كان من بطانة العباس بن أحمد بن طولون . الكندى : الولاة ص ٢٤٦ – ٢٤٧

(٣) هو الحسين بن عبد الله التاجر الجوهرى . توفى سنة ٣١٥ . ابن خلكان ج ٣ ص ٧٧

(٤) استشرف إليه : تطاول وتطلع إليه ، ثم خرج إلى لقائه . (ش) .

فبينا هو فى صدرها إذ وَافَى عِلاَّنُ بنُ المغيرة ، فلما رآه مقبلًا نحوه قام إليه على رجليه ، ثم خطا إليه حتى لَقِيَه ، فأكثرت الجماعةُ قيامَ شيخٍ مثلِه إلى حَدَثٍ مثل عِلاَّن ، وتحفّيه به ، وعَرْضِ نفسه عليه ، وأنّه لم يدع شيئاً يفعله تابع بمتبوع إلاّ بَذَله ، وأسْرَرْنا الموجِدةَ [1] عليه . فلما قام عِلاَّن قال لجماعتنا : « ما أعلمنى بما أضمرتم ! ولكنّى أريكم عُذرى فيما خرجتُ إليه :

« كانت عندى ألفُ دينار وديعةً لرجلٍ بالمغرب قد طال مُقامها ، وطالب زوجُ ٱبنتى بإدخالِ امرأته عليه ، فجلستْ أمُّها بحَضْرتى فقالت لى : « ما الذى تراه فيما قد ألحّ فيه هذا الرجل ؟ » ، فقلت لها : « نستعمِل فيه التجوُّز » [2] ، فقالت لى : « لنا حُسّاد نخاف شَماتتهم ، ولا بُدّ من أن تُعِيننى على التجمُّل » ، فقلت : « إنْ كان ما تُريدين فى قدرتى لم أبخلْ به عليكم » . قالت : « هو فى قُدْرتك ! » قلت : « ماهو ؟ » ، قالت : « تمكِّننى من هذه الوديعة ، ونحتاط فيما نبتاعه من الجَهاز حتى يصل إلينا ثَمَنُه فى أىِّ وقتٍ أردناه ، ونُدْخِل هذه الصبيَّةَ على زَوْجها . فإن جاء صاحبُ الوديعة بِعْنا ما ٱشتريناه ولم نُوضَعْ فيه [3] إلاّ ما يسهُل علينا غُرْمه » ، قلت : « هذا قبيح عند الله وعند خلقه ! » . فلم تزل تُلِحُّ بى وتحتالُ علىّ ، حتى أجبتها . فجهّزتِ ٱبنتَها بجميع المالِ ، وأدخلتْها على زوجها .

فلم يمضِ بنا بعد ذلك إلا شهران حتى وافَى صاحبُ الوديعة يطلبُها ، فقلت لها « ماتفعلين ؟ » ، فقالت : « أمْضى فأحملِ المتَاع وأبيعُه » . فمضتْ إلى ابنتها ورجعت إلىّ ، فقالت : « لا تشغَلْ نفسَك بهذا المتاع ، فقد حلَف زوجُها بطلاقِها أنه لا يَخْرُج منه شىءٌ عن منزله » ، فسُقِط فى يَدِى [4] ، ورأيتُ الفضيحة فى الدّارَيْن متصدِّيةً لى : فوُضِع إفطارى بين يدىّ فلم أطْعَم ، وٱعترانى ماخفتُ

---

(١) الموجدة : الغضب المكتوم . (ش) .

(٢) التجوز : التساهل . (ش) .

(٣) أوضع فى المال (بالبناء للمجهول) : وكس وغبن وخسر . (ش) .

(٤) سقط فى يده (بالبناء للمجهول) : إذا زل الرجل وأخطأ فندم على مافرط منه . (ش) .

منه على عَقْلى ، وبتُّ بليلة مابِتُّ بمثلها ، وأنا أتبيّن سهولةَ ذلك على زوجتى فى جَنْب ما أحرَزَتْه لبنتها . ثم ٱنتبهتُ قبلَ الفجر بمنازل ، فصحتُ بالغلام « أسْرِج لى ! » ، فقام [١] وأسْرج ، وقال : « ياسيدى ! أين تمضى ؟ » ، فقلت : « ليس لك الاعتراضُ علىّ » .

وركبتُ وسِرْت بطَوْعِ عِنانى ، فلم يزل بَغْلى يسير حتى دخلتُ زُقاق علّان ابن المغيرة ، فوقفتُ على باب دارِه ، وصَاحَ الغلام بالبوّاب وعَرَّفه بموضعى . فسمعتُ حركة فى داره ، ثم فُتِح الباب وأُذِن لى بالدخول . فدخلتُ عليه ، فوجدتُ بين يديه شمعةً وهو يكتب جواباتِ كتُبِ وُكَلائه . فلمّا رآنى قام إلىّ ، وقال لمن حضره من الغلمان ، « تَنَحَّوْا ! » ، وأقبل علىَّ فقال : « والله لو بعثت إلىّ لسرْتُ إليك ولم أُجَشِّمْك السعْىَ إلىّ ، فاشرحْ لى أمرك » ، فغَلبتنى العَبْرَةُ وحالت بينى وبين الكلام ، فما زال يُسَكِّنُنى حتى نَصَصْتُ له إنفاقَ [٢] الوديعة ، وهو مغمومٌ بأمرى . ثم قال « فكم هذه الوديعة ؟ » ، فقلت « ألفُ دينار ! » ، فضحك ، وقال : « فرَّجت وَالله عَنّى ! ماتوسَّمْتُ أنى أملكها [٣] ، فكان الغمُّ يقع بها ، فأمَّا وهى فى القدرة فما أسهلَهَا علىّ ، وأخفَّها لدى ! » ، ثم قال لغلامه : « جئنى بتلك الصِّرار [٤] التى وردتْ علينا من المغرب فى هذا الشَّهْر » ، فجاء بأربع صِرارٍ فنظرَ فيما عليها وجمعَه وقال : « هذه ألف دينار وخمس مائة دينار ، ألفٌ للوديعة ، وخمس مائة تصلح بها مابينك وبين من عندك » ، ثم قال لى : « متى أشكر إفرادَك إيّاى – بعدَ الله عز وجل ذكره – بتأميلى فى حادِثةٍ حدثت عليك ، فأعاننى الله على مكافأتك ؟ » . وأضاف إلىّ من خَفَرنى إلى منزلى » .

فقالت الجماعةُ : « قد سمعنا عُذْرك ، وعلينا عهدُ الله إنْ لقيناه أبدًا إلّا قيامًا » .

---

(١) أسرج له : أى وضع على الدابة سرجها . (ش) .
(٢) كذا فى ش ، وفى ج ، ع : « اتفاق » . ونص الحديث إلى فلان : رفعه إليه وأظهره . (ش) .
(٣) توسم الشئ : توهمه وتخيله . (ش) .
(٤) الصرار : جمع صرة ، وهى التى تصر فيها الدراهم . (ش) .

الطالبى ووالد المؤلف

٢٦ - وبعثَ أحمد بن طولون - فى الساعة التى تُوُفِّىَ فيها يوسف بن إبراهيم والدى - بخدَمٍ فهَجَمُوا الدَّار (١) ، وطَالبوا بكتبه : مقدِّرين أن يجدوا فيها كتابًا ممّنْ ببغداذ . فحملوا صندوقين وقبضُوا علىَّ وعلى أخى ، وصاروا بنا إلى داره . وأُدْخِلنا إليه وهو فيها جالس ، وبين يديه رجل من أشرافِ الطالِبيِّين . فأمر بفتح أحدِ الصندوقين ، وأدخل خادمٌ [يَدَه] ، فوقع دفترُ جراياته على الأشرافِ وغيرهم . فأخذ الدفترَ بيده وتصفَّحَه - وكان - جيِّد الاستخراج - فوجَدَ ٱسمَ الطالبىّ فى الجِراية ، فقال له وأنا أسمع : « كانت عليكَ جرايةٌ ليوسف بن إبراهيم ؟ » ، فقال [له : « نعم ! أيُّها الأمير !] ، دخلتُ هذا البلد وأنا مُمْلِقٌ (٢) ، فأجرى علىَّ فى كل سنة مائتى دينار ومائتى إرْدَبّ قمحٍ ، أُسوةً بابنى الأرقط والعَقِيقىّ وغيرهما . ثم ٱمتَدّت يَدَاى بطَوْلِ الأمير (٣) فاستعفيتُهُ منها، فقال لى : « نَشَدْتُك الله إن قطعتَ سببًا لى برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ! » ، وتَدَمَّع الطالبى (٤) ، فقال أحمد بن طولون : « يرحم الله يوسف بن إبراهيم ! » . ثم قال لنا : « انصرِفوا إلى مَنازلكم ، لا بأس عليكم » .

فانصرفنا فلحقنا جَنازة والدنا ، وحَضَرنا العلوىُّ وقد أحسن مكافأة والدنا فى مُخلَّفيه (٥) .

* * *

موسى بن مصلح ورجال من التجار

٢٧ - وحدثنى موسى بن مُصلح ، قال :

أنفذ إلىَّ حسن بن مهاجر (٦) - كاتبُ أحمد بن طولون - عشرةَ رجال من

---

(١) هجم الدار : دخلها بغتة بغير إذن . (ش) .

(٢) أملق الرجل فهو مملق : نفذ ماله فهو فقير . (ش) .

(٣) امتدت يده بكذا : اتصلت . والطول : الفضل والإحسان . (ش) .

(٤) تدمّع : أى سالت دمعته وبكى ، ولم يوجد فى اللغة ، ولكنه كثير فى كتب عصر ابن طولون . (ش) .

(٥) ياقوت : إرشاد الأريب ج ٢ ص ١٥٨ - ١٥٩ ، الصفدى : الوافى بالوفيات ج ٢٩ ص ٦٨

(٦) انظر فى حسن بن مهاجر : البلوى : سير أحمد بن طولون ص ١٤٢

التُّجّار ، وقال : ٱعتَقِلْهم بمَعْزِلٍ عن المسجونين ، حتى أعرِضَهم فى غَدٍ على الأمير » . فتسلمت منه قومًا تشهَد لهم القلوبُ بالفضل ، فآنستُ وَحْشَتهم ، وفَسَحْتُ رجاءَهم . فقالوا لى : « قد شكرنا جميلَ صَنِيعك ، ولنا إليك حاجة » ، قلت : « ماهى ؟ » ، قالوا : « فينا فتًى يضْعفُ قلبهُ عن لقاءِ الأمير ، فتقبَّلْ مِنَّا بدَلًا به ، ولك علينا مائة دينار » ، قلت : « أنا أفعل ، إن وجدتُم من يُجيب إلى هذا ! » .

– وكان عندى أنه كالممتنع –؛ فأخذ شيخٌ منهم رُقعةً وكتب فيها إلى رجلٍ كان قد أوْلَاه عارفةً ، فسأله ذلك ، فأجابه الرجل : « إنى بإثْرِ رُقعتى » .

قال موسى : « فتوهَّمْتُ أن هذا قولٌ لا ثمرةَ له ، فلم أَشعر به حتى وَافَى فقال : « ما أخَّرنى عنكَ إلّا أنّى جدَّدت وصيةً ، وأحكمتُ ماخِفْت أن يقطعَنى عنه مادَعَوْتَنى إليه » ، وقال : « لستُ أُجيبك إلى ما التمْستَ ، حتى تكون المائةُ الدينار من عندى دون جَماعتكم » ، وأخرجها من كُمّه ودَفعها إلىّ ، وصرفتُ الرجل . وأقامَ هذا مكانَه ، فلم أتبيَّن منه غمًّا بهذا ولا قَلَقًا له . وظَلُّوا ليلتهم يتحدّثون ويتناشدون ، والسلامةُ غالبةٌ على خواطرهم ، حتى أصبحوا . وأخرجهم حسن بن مُهَاجر فعرضَهم على أحمد بن طولون ، فتبيَّن تحامُلَه عليهم ، فأمَره بترك التعرُّض لهم . فٱنصرفوا . وكانت أَلْطافهم تَرِد عَلَّى حتى فَقَدتهم » [١] .

* * *

تاجر وزوجته

٢٨ – وحدثنى أحمد بن أيمن كاتبُ أحمد بن طولون ، قال : « دَخلتُ بالبصرة إلي تاجر ذَهَبَ عنِّى اسُمه ، فرأيتُ بين يديه ابنين له فى نهاية من النظافةِ ، فلما رآنى أُقْبِل بنظرى إليهما ، قال لى : « أُحِبّ أن تُعوِّذَهما » ، [٢] فَفعلتُ ، وقلت له : « استجدْت الأُمَّ فحسُنَ نَسْلُك ! » ، فقال : « ما بالبصرة أقبحُ من أمِّهما ، ولا أحبُّ إلىّ منها . ولها معى خبر عجيب » ، فسألتُه أن يُحَدِّثَنيه ، فقال :

---

(١) الألطاف : جمع لطف ، وهى الهدية والتحفة . (ش) .

(٢) عوّذه من العين والحسد ، قال : « أعيذك بالله وأسمائه من كل ذى شر وكل داء وحاسد وعين » ، (ش) .

« كنت أنزل الأُبُلَّةَ وأنا مُتَعَيِّش [١] ، فحملتُ منها تجارةً إلى البَصْرة فربحتُ ، وحَمَلْتُ من البصرة إلى الأُبُلَّةِ فربحتُ ولم أزلْ أحمل من هذه إلى هذه فأرَبح ولا أخسَر ، حتى كُثرَ مالى ، وتَعالم الناس إقبالى ، وآثَرت السُّكْنَى بالبصرة ، وعلمتُ أنه لا يحسن بى المُقام بها بغير زوجةٍ ، ولم يكن بها أجلُّ قدرًا من جَدِّ هذين الغلامين . وكانت له بنت قد عَضَلَها [٢] ، وتعرّض لعداوَة خُطّابها . فحدَّثتنى نفسى بلقائِه فيها ، فجئته على خَلْوَةٍ ، وقلت له : « ياعَمِّ ! أنا فلان بن فلان التاجر » ، فقال : « ماخَفِىَ عنّى محلُّك ومحلُّ أبيك ! » . فقلت : « قد جئتك خاطبًا لابنتِك » ، فقال : « والله مابى عنك رَغْبَةٌ ، ولقد خطبها إلىّ جماعةٌ من وجوه البصرة وما أجبتُهم ، وإنى لكارهٌ من إخْراجِها عن حِضْنى إلى من يُقَوِّمها تقويم العَبِيد » [٣] ، فقلت : « قد رفعها الله عن هذا الموضع ، وأنا أسألك أن تُدْخلنى فى عَدَدِك وتَخْلِطَنى بشَمْلك » ، فقال : « ولا بُدّ من هذا ! » ، قلت : « لابُدّ ، وهو زائدٌ فى فضلك علىّ ، واصطناعك إيّايِ » ، فقال : « اغدُ علىّ برِجالك » .

فانصرفتُ عنه إلى مَلأ من التجار ذوِى أخْطارٍ [٤] ، فسألتهم الحضورَ معى فى غدٍ ، فقالوا : « إنّك لتُحَرّكنا إلى سَعْيٍ ضائع » ، قلت : « لابدّ من ركوبكم معى » . فركبوا على ثِقَةٍ من أنّه يردُّهم ، وغدوْنا عليه فأحسنَ الإجابة وزوّجَنى ، وأطعمَ القوم ، ونَحَر لهم ، وانصرفوا .

ثم قال لى : « إن شئتَ أَن تَبِيتَ بأهلِك فافْعل ، فليس لها مايَحْتاج إلى التلوُّمِ عليه » [٥] ، فقلت : « هذا ياسَيِّدى ما أحبُّه » . فلم يزل يحدِّثنى بكل حَسَنٍ حتى

---

(١) المتعيش : الذى يتكلف أسباب المعيشة بالقليل من العمل والتجارة . (ش) .

(٢) عضل المرأة : حبسها ومنعها الزوج . (ش) .

(٣) قوّم السلعة والعبد : قدر قيمتها فى الشراء والبيع . (ش) .

(٤) الملأ : الرؤساء وأشراف القوم ووجوهم . والأخطار : جمع خطر ، وهو القدر والمنزلة الرفيعة . (ش) .

(٥) تلوّم على الشئ : انتظر وتلبث . (ش) .

كانت المغربُ ، فصلاّها [١] بى ، ثم سَبّح وسبّحت ، ودعا ودعوتُ ، إلى أن كانت العَتَمة فصلاّها بى ، وأخذ بيدى ، فأدخلنى إلى دارٍ قد فُرِشَت بأحسن فَرْشَةٍ ، بها خَدَمٌ وجَوَارٍ فى نهاية من النّظافة ، فما استقرّ بى الجلوس حتى نَهضَ ، وقال : « أَستودعك الله ، وقدّم الله لكما الخِيَرَة ، وأَحرَز التوْفيق » . واكتَنفْنني عجائزُ من شَمْله ، فجَلْونَ ابنتَه علىّ [٢] . فما تأمّلت طائلا .

وأرْخَتِ الستورَ علينا ، فقالت : « ياسيدى ! إنى سرٌّ من أسْرارِ والدى ، كتَمه عن سائر الناس وأفضى به إليك ، ورآك أمَلا لسَتْره عليه ، فلا تُخْفِر ظَنَّه فيه . ولو كان الذى يُطْلَب من الزوجةِ حُسْنُ صورتها دون حسن تدبيرها وعَفَافِها ، لعَظُمَت مِحْنتى . وأرجو أن يكونَ معىَ منهما أكثرُ مما قصّر بى فى حُسْن الصورة » ثم وثبت فجاءت بمال فى كِيسٍ ، فقالت : « ياسيدى ! قد أحلَّ الله لك معى ثَلاثَ حرائرَ وما آثرتَهُ من الإماء ، [٣] وقد سَوّغْتُك تزوُّج الثلاث وابتياع الجوارى من مالِ هذا الكيس ، فقد أوقفتُه على شَهَواتك ، ولستُ أطلب منك إلاّ سَتْرى فقط » .

فقال لى أحمد : فحلفَ لى التاجرُ : « إنها ملكت قلبى مِلْكا لم تصل إليه حسَنَةٌ بحُسْنها ، فقلت لها : جزاءُ ماقدّمتِيه ما تسمعيهِ [٤] منّى : « واللهِ لا أصبتُ من غيرك أبدًا ، ولأجعلنّك حَظّى من دنياى فيما يُؤْثِره الرجلُ من المرأة ! » ، وكانت أشفَقَ النّساء ، وأضبطَهم ، وأحسنَهم تدبيرًا فيما تتولاه بمنزلى ، فتبيَّنت وقوعَ الخِيَرة فى ذلك ولحقتنى السِّنُّ [٥] ، فصارتْ حاجتى إلى الصواب أكثر منها

---

(١) العتمة : ثلث الليل الأول بعد غيبوبة الشفق ، وهو وقت صلاة العشاء . وقد نهى ﷺ عن تسمية صلاة العشاء « العتمة » ، (ش) .

(٢) جلا العروس على بعلها يجلوها : زينها وصقلها وأدخلها عليه ، وذلك « جلوة العروس » ، (ش) .

(٣) الحرائر : جمع حرة ، وهى المرأة التى لم يجر عليها الرق ، فتكون أمة ، وهى المملوكة ، وجمعها إماء . (ش) .

(٤) هذا حكاية قول التاجر ولذلك لم يبدّل مافيه من اللحن والخطأ ، وسيمر كثير من ذلك فى الكتاب . (ش) .

(٥) لحقته السن : أدركه الكبر فى السن العالية . (ش) .

إلى الجِماع . وشكرَ الله لى ما تلقَّيت به جميلَ قولها ، وحُسْنَ فعلها ، فرزَقنى منها هذين الابنين الرّائعين لك ، ونحن منقطعون إلى جُودِه فينا ، وإحسانِه إلينا » .

* * *

هرثمة بن أعين والرشيد

٢٩ – حدثنى أحمد بن أبى يعقوب قال :

« أنكر المهدى [١] على هَرْثَمة بن أَعْيَن [٢] تحكُّكه بمَعْن بن زائدة [٣] ، وأمر بنَفْيه إلى المغرب الأقصى ، فكلّمه الرشيدُ فيه ، وٱسْتَلّ سخيمتَه عليه [٤] . ومات معنٌ ، وزادت حالُ هرثمة ، وشكر للرشيد ماكان منه ، وأفضت الخِلافة إلى موسى الهادى [٥] ، فتمكّن منه هرثمة . وحدّثت الهادِىَ نفسُه بخلْع الرشيد ، وجَمَعَ الناسَ على تقليدِ ٱبنه العَهْدَ بعهده ، وعلم بهذا هرثمة ، وتذكّر عارفة الرشيدِ ، فتمارَضَ .

وجمع الهادِى الناسَ ودعاهم إلى خلع الرشيد ونَصْب ٱبنه مكانه ، فأجابوه وحَلَفوا له . وأَحْضَر هرثمة ، فقال له : « تُبايع ياهرثمة ؟ » . فقال : « يا أمير المؤمنين ! يمينى مشغولةٌ ببَيْعَتك ، ويسارى مشغولة ببَيْعةِ أخيك ! فبأىِّ يدٍ أُبايع ؟ والله يا أمير المؤمنين لَا أكَّدْتَ فى الرقاب من بيْعَة ٱبنك ، أكثرَ مما أكَّده أبوك لأخيك فى بيعته ، ومن حَنِثَ فى الأولى حَنِثَ فى الأُخرى [٦] . ولولا تأوُّل هذه

(١) هو أبو عبد الله محمد بن المنصور ، كان جوادا محببا إلى الرعية ، حسن الاعتقاد ، تتبع الزنادقة ، وأفنى منهم خلقا كثيرا . وهو أول من أمر بتصنيف كتب الجدل فى الرد على الزنادقة والملحدين . توفى سنة ١٦٩ . السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣١٧

(٢) انظر فى هرثمة : الكندى : الولاة ص ١٦١ ، ١٧٥

(٣) هو أبو الوليد معن بن زائدة بن عبد الله بن زائدة . كان جوادا شجاعا جزل العطاء كثير المعروف ممدحا مقصودا . وكان مَعْن فى أيام بنى أمية متنقلا فى الولايات ومنقطعا إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى أمير العراقين . توفى سنة ١٥٨ . ابن خلكان ج ٥ ص ٢٤٤

(٤) السخيمة : الغضب والموجدة فى النفس . واستلها وسلها : أخرجها بتأن ورفق . (ش) .

(٥) هو أبو محمد موسى بن المهدى بن المنصور . وأمه أم ولد بربرية اسمها الخيزران . مات فى ربيع الآخر سنة ١٧٠ . السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٢٥ .

(٦) حنث فى اليمين : نقضها بعد توكيدها . (ش) .

الجماعة بأنَّها مُكْرَهة ، وإسْرارُها فيك خِلافَ ما أظهرَتْ ، لأمْسَكتْ عن هذا » .
فقال لجماعة مَنْ حَضَر : « شَاهَتْ وجوهكم ! والله لقد صَدَقَنِى مولاى وكَذَبْتُمُونى ، ونَصَحنى وغَشَشْتمونى » .
وسَلِمَ إلى الرشيدِ ماقدره الهادى فيه » .

* * *

أبو يوسف والرشيد

٣٠ - وسمعت يوسف بن إبراهيم والدى يقول :
« لم يتمكَّن أحدٌ من أحدٍ تمكُّنَ أبى يوسف القاضى [١] من الرشيد . ولقد سألتُ إبراهيم بن المهدى عن السبب فى ذلك ، فقال : « كان يستحِقُّ هذا منه لما حدَّثنى به مسرورٌ الكبير [٢] ، قال :
«كنتُ فى خِدْمة المهدىِّ ، وكان الرشيد حفيًّا [٣] بى ، محسنًا إلىّ ، فلمّا ٱنتقل أمر الخلافة إلى الهادى ، قال لى الرشيد : « إنّ أخى قوىُّ الشَّراسة ، وأنا أخاف إيقاعه بى وجَمْعَ الناس على بيعة ٱبنه بعده . وأنا على غايةٍ من الثقة بك ، فٱعدل إليه وكن لى عَيْنا عليه » [٤] . فتقدمتُ عند الهادى حتى تولَّيت سِتْرَ بيت خَلْوَته . وكان المهدىُّ قد قَرَن أبا يوسف بالهادى فتمكن منه ، وقَبِل فى مُهِمَّاته مَشُورته ، فلمَّا خَلَا بقلبه شاورَه فى ذلك ، فقال : « يا أمير المؤمنين ! لا تحمِلْ نفسَك على قطيعة رَحِمِك ، وأولياءَك على الحِنْثِ بأيْمانهم ، وٱستدْعِ من الله زِيادَته بما يُرضِيه عنك » ، فتوقَّف بعض التوقُّف . وسُعى إليه بالرشيد ، وقيل له : « إنه [عاملٌ] على أن يغتالَك » . فدعا بأبى يوسف وأخبره بما تأدَّى إليه ؛ فقال :

---

(١) هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد ، صاحب أبى حنيفة ، كان فقيها عالما حافظا ، وكان قد سكن بغداد وتولى القضاء بها لثلاثة من الخلفاء : المهدى وابنه الهادى ثم هارون الرشيد . توفى سنة ١٨٠ . ابن خلكان ج ٦ ص ٣٧٨

(٢) انظر فى مسرور : تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٥٣٢

(٣) يقال : هو حفىّ به ، أى : مبالغ فى الكرامة والبر . (ش) .

(٤) العين : الجاسوس . (ش) .

« يا أمير المؤمنين ! لا تسمَعْ هذا ، وأنا الضامنُ لك حُسنَ طاعته ووَكيد مُوَالاته » . فكنت أُنْهِي جميعَ ذلك إلى الرشيد فيشتدُّ سرورُه به ، ويرغبُ إلى الله فى مَعُونته على مكافأته .

فلما أفضت الخلافةُ إليه ، دعا به وقال له : « يايعقوب ! لو جاز لى إدخالُك فى نَسَبى ، ومشاركتُك فى الخِلافة المُفْضِيَة إلىّ ، لكنتَ حقيقًا به ! ألستَ القائلَ لأخى وقت كذا : كذا ؟ وفى وقت كذا : كذا ؟ ، فقال : « يا أميرَ المؤمنين ! من أنبأك بهذا ؟ فوالله ماكان معنا ثالث ! » . فضحك الرشيد وقال : « مسرورٌ كان يتولى سِتْر بيت خَلْوَتِهِ ، وكان يُنْهِى إلىَّ جميع ماصَدَر عنه » .

قال مسرور : « فوالله مابرحتْ بى عنايةُ أبى يوسف حتى بَلَغْتُ مع الرشيدِ هذا المبلغ ! » .

* * *

أبو يوسف وبذل

٣١ – وحدّثنى أحمد بن أبى عمران الفَقِيه ، أن ابن الثَّلْجِىِّ [١] حدَّثه ، أنَّ بِشْرًا المَرِيسِىَّ [٢] – وكان متزهِّدًا – قال :

« ماآشتهيتُ من مَراتب السُّلطان إلّا مرتبةً رأيتُ أبا يوسف بلغها فى عشيةٍ من العَشَايا . كنت آجتزتُ به مسلِّمًا عليه ، فقال لى : « تُقيم عندى العشِية لنتناظر فى طائفة من العلم ؟ » . فإنّى لجالسٌ عنده – وقد آبتدأ فيما أثَرْناه – حتى وَافى إليه رسولُ أمير المؤمنين الرشيد ، فقال لى : « انتظرنى » ، ومضى ؟ فغاب عنّى مقدارَ ساعتين ، ورجع ، وخلفَه غلمان يحملون مالًا ، فوضعوه بين يديه وآنصرفوا فقال : « دُفِعْتُ الليلة إلى عجائب ! » ، قلت : « ماهى ؟ » ، قال : « دخلت إلى دارِ أمير

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن شجاع ابن الثلجى . كان فقيه العراق فى وقته ، وكان من أصحاب الحسن بن زياد اللؤلؤى . توفى سنة ٢٦٦ . ابن السمعانى : الأنساب ج ٣ ص ١٣٨ ، الذهبى : العبر ج ٢ ص ٣٣

(٢) هو أبو عبد الرحمن بشر بن غياث بن أبى كريمة المَرِيسِىّ ، الفقيه الحنفى المتكلم ، وكان مرجئا ، وإليه تنسب الطائفة المريسية من المرجئة . توفى سنة ٢١٨ هـ . ابن خلكان ج ١ ص ٢٧

المؤمنين ، فٱنتهى بى رسولُه إلى سِتْرٍ مُسْبَلٍ على بابٍ [(١)] ، مسرورٌ الكبير يُمسكه ، فقال لى : « سلِّم على أمير المؤمنين ! » ، فسلمتُ ، فقال : « وعليك [السلام] يايعقوب ! ٱدخُلْ وحدَك » ، فرُفِعَ الستر حتى دخلتُ ، فأَلفيت عنده محمّد بن جعفر بن المنصور – مولى الجارية المعروفةِ ببَذْلٍ – ووَجْهُ كل واحد منهما محوَّلٌ عن صاحبه ، وبين يَدَى الرشيد سيفٌ مشهور .

فقال لى : « يايعقوب ! هذا الرجل يُديرنى [(٢)] مُذِ الظهر على قتله ! » ، فقال له : « ترضى به حكما بيننا ؟ » ، قال : « نعم ! » ، قال : « ألقِ هذا السيف من يَدِك ، وٱرْضَ بالحقّ لكَ وعليك » . وٱستدارا جميعًا حتى جلسا مجلسَ الخُصوم بين يدىَّ .

ثم قال الرجل : « سألنى أميرُ المؤمنين أن أبيعَه جاريةً علىَّ فيها أيمان مُحَرَّجة لا كَفَّارة لها ، ألّا أبيعَها ولا أهَبَهَا » ، قال فقلت له : « فتسمَحُ بها لأمير المؤمنين إن أخرجتُك من يَمينك ؟ » ، قال : « إى والله ! وإنّ ذلك لسهْلٌ علىَّ » ، فقلت : « هَبْ لى نصفها ، وبِعْهُ نصفَها » . فقال : « قد أجَبْتُ ، وجعلتُ ثمَن النصف هديَّةً لك » . وتعانقا جميعًا ، وٱنصرفتُ إليك ، ولحِقنى هذا المال » . فوجدنا المال المحمولَ خمسة وعشرين ألفا ، فقلت فى نفسى : « أحيا نفسًا ، وأصلحَ بين خليفةٍ وٱبن عَمّه فى مقدارِ ساعتين من النهار ! » .

قال بشر : « فوالله ما فَرَغنا من صلاةِ المغرب حتى ٱبتدَرنا الغلمان يحملون مالا وبَزًّا وطِيبًا [(٣)] ، ومعهم جارية حصيفةٌ [(٤)] ، فقالت : « تقرأ عليك السلامَ سيّدتى وتقول لك : « أجازَنى سيّدى أمير المؤمنين بما حملته إليكَ ، فجعلتُه ثواب الفُتْيا التى كانت سَبَبَ وصولى إليه » .

فكان المال منه خمسة وعشرين ألفا » .

* * *

(١) مسبل : مرسل . (ش) .

(٢) يديرنى : يوجهنى ، يحملنى (ج) .

(٣) البز : الثياب . (ش) .

(٤) حصيفة : جيدة الرأى محكمة العقل . (ش) .

جل من صنائع الأمويين والمنصور

٣٢ - حدثنى أحمد بن أبى يعقوب قال : حدثنى أبى أبو يعقوب . عن جدّى واضحٍ مولى المنصور [١] ، قال :

« كنتُ بين يدى المنصور ، وقد أحضَر رجلا كان من رجال هشام بن عبد الملك ، وهو يُسائله عن سيرة هِشامٍ لأنها كانت تُعجب المنصورَ . فكان الرجل يترحّم عند كل جارٍ من ذكره ، فأحْفظ ذلك جماعتَنا [٢] ، فقال له الربيع [٣] : « كم تترحّم على عدوٍّ أمير المؤمنين ؟ » ، فقال الرجل للربيع : « مجلسُ أمير المؤمنين - أيَّده الله - أحقُّ المجالس بشُكْر المحسِن ، ومجازاةِ المُجْمِلِ ، ولهشام فى عُنُقى قِلادَةٌ لا يَنْزعها إلّا غاسلى » ، فقال له المنصور : « وما هذه القِلادة ؟ » . قال : « قلَّدنى فى حياتِه [٤] ، وأغنانى عن غيره بعدَ وفاته ! » ، فقال له المنصور : « أحسنتَ بارك الله عليك ! وبحُسْن المكافأةِ تُسْتَحَثُّ الصنائعُ ، وتزكو العَوَارف [٥] » ، ثم أدخله فى خاصته » .

* * *

بعض أقوال الفلاسفة فى حسن المكافأة

وقد مثَّل بعضُ الفلاسفة لِحُسْنِ المكافأةِ ، بالحُسام الصقِيلِ الذى يُحْدِث له وقوعُ الشمس عليه : انبعاثَ شُعَاع منه يجلُو غيَاهب الأمكِنة المظلمة ، ويكون وفُور شُعاعه على حسب صِقَاله .

---

(١) الخليفة المنصور : هو أبو جعفر عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس . بويع بالخلافة بعهد من أخيه ، وكان فحل بنى العباس هيبة وشجاعة وحزما ورأيا وجبروتا ، جماعة للمال ، تاركا اللهو واللعب ، كامل العقل ، جيد المشاركة فى العلم والأدب . توفى سنة ١٥٨ هـ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٠٣

(٢) أحفظه : أغضبه . (ش) .

(٣) هو أبو الفضل الربيع بن يونس ، حاجب أبى جعفر المنصور ، وَوَزَرَ له بعد أبى أيوب المورياني ، توفى سنة ١٦٩ هـ ، ابن خلكان ج ٢ ص ٢٩٤

(٤) قلدنى : يريد قلده عملا من أعمال السلطان . (ش) .

(٥) استحث الصنائع : جعلها سريعة متتابعة متصلة ، والصنيعة : الجميل والإحسان ، العوارف : جمع عارفة ، وهى المعروف . زكا المعروف يزكو : نما وزاد . (ش) .

وقال أفلاطون : « من حَسُنت مكافأته، لم تُغْضِبه خَيْبَتُه فيما ٱلتمسَهُ ؛ لأنه يُقيم العوارِفَ مقام دُيونٍ يتحمَّلها لا يَسَعُه إغفالُ قضائها . وإنما يغضَب من المنع : مَنْ آثَرَ تحصيلَ العارِفة وإغفالِ المكافأةِ عليها » .

* * *

خاتمة الـ
لهذا الـ

ولأنَّ المرغوبَ إليه إذا كان يحتاج إلى مُطالعة حُسْنِ المكافأة للإحسان فيثابِر عليه ، وسوءِ المكافأةِ على الإساءة فيتأخَّر عنه ، كان الراغبُ محتاجًا إلى أن يكونَ فى خَلَده من أخْبار من أساءَ الصنيع فساءَت مكافأته ، مايوازى ما أثبتناه من حُسْن المكافأة للإحسان .

* * *

٢ - المكافأة على القبيح

ك الهياطلة وفيروز

٣٣ - حدثنى أحمدُ بن يوسف بن جعفر بن سليمان بن على بن عبد الله بن العباس ، عن أبيه ، عن جدّه مولى عبد الله بن المقفَّع [١] - أنّ عبد الله حدّثه ، قال :

« كان فيما ترجمتُه من سِيَرِ الفُرس : أن فيروزًا لمّا تقلَّد مملكة فارس حدّثته نفسه باجتياز بلد الهَيَاطلة [٢] . وكان به للهياطلة مَلِك صحيحُ الرأى حَسَنُ الجوار ، فجمع ذَوِى الرأْى فى بلده وسألهم عمّا يرون ، فعرضوا عليه أموالهم والخروج معه ، فجزَّاهم خيرًا وٱنصرَفُوا . وخلَابه وزيرُه - وكان عَالِيَ السِّنّ [٣] - فقال له : « أيها الملك إنّ يسيرَ الحيلة ربّما بلغ أوْفَى منازِل المكافحة والّذى عندى من الرأى أن تُظهر السُّخْط علىّ فتقطع يدىَّ ورجلىَّ ، وتنفِيَنى إلى أقاصِى عَمَلك ، وتكتبَ إلى عاملك هناك فى حبْسى ، وتظهِرَ أنّك تَبيَّنت منّى مَيْلًا إلى فيروز » ، فقال له : « إنّ حسن الحيلة إنّما يَقع بغير إضرار يلحق صاحبها ، وإذا بلغنا بك هذا ، فقد جاوزنا بك ماتخافه من فيروز لو حصلتَ فى يدِه » .

فقال : « أنا مُذْ تكامَلَ تمييزى أحسُب مالِىَ وعلىَّ ، فإذا وُهِبَتْ لى نعمةٌ علمتُ أنَّ علىَّ فيها مِحْنة ، وأنّ الرغائبَ بالنوائب [٤] . وقد عشتُ فى سلطانك - أيها الملك - فى هذه السّن العالية ، عزيزَ الجانب ، خصيبَ الأفْنِية ، وشَمْلى فى نهاية من رَفَاغة العيش . [٥] وليسَ من الجميل أن أُمْسِك عن قضاء حقّ النعمة علىّ لسلطانى وشَمْلى وأهلى وولدى ، وصِيَانتهم ، مما عَرَاهم بنفسى [٦] . وأعلم

---

(١) ابن المقفع : عبد الله ابن المقفع ، الكاتب المشهور بالبلاغة ، صاحب الرسائل البديعة ، وهو من أهل فارس ، وكان مجوسيا فأسلم . قتل بالبصرة سنة ١٤٢ هـ . ابن خلكان ج ٢ ص ١٥١

(٢) الهياطلة : اسم لبلاد ماوراء نهر بلخ . ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ٣١٤

(٣) عالى السن : كبيرا مسنا . (ش) .

(٤) الرغيبة : الشئ العظيم المرغوب فيه . (ش) .

(٥) رفاغة العيش : سعته وخصبه . (ش) .

(٦) عراه الأمر الشديد : أصابه وغشيه . (ش) .

أنّى لو خدمتُ السلامةَ لنفسى ، لمات ذِكْرى بموتى ، ولم أُبْق شَرَفًا لأهلى ! ولعلّ أجلى قريبٌ ، فأفوز بحُسْن الذكر فيما أتيتُه وقضَيْتُ به حقَّ سَوالف الإنعام علىّ ، والإحسان إلىّ . وإنّما ٱعتمدتُ هذا الأمرَ الفظيعَ لأعدلَ بفكْر فيروز عن الحِيلة ، وأضطرَّهُ إلى السكون إلىَّ » .

« فلمّا رأَى أنه لا يرجِع عمّا أشار به عليه ، دعَا به وقطعَ يديه ورجليه ، ونفاه إلى آخر مسالحه [١] ، فكان محبوسًا هناك .

« وجَدَّ فيروز فى سفره ، فوافى الموضع الذى فيه الوزير ، فوجده خاليًا ممن كان فيه ، ولم يرَ به غيرَ رجلٍ مقطوعِ اليدين والرجلين ، فسأله عن حاله فقال : « كنت وزيرًا لهذا الخائنِ فاستشارنى ، فأشرْتُ عليه أن لا يناهضك ، وأن يسألك إقرارَه فى البلد ، وحملَ خَرَاجه إليك . فاستشاط ، وسوَّلت له نفسُه مُنَاوأَتك ، وقد جمع جيشًا له كثيرَ العَدَد قوىّ النِّكاية ، وقدَّر أن يلقاك فى هذه الطريق . وعندى حيلةٌ أجازيه بها على سوءِ صنيعه » .

« وٱستْجلَى فيروزُ الوزيرَ [٢] فقال له : « إن عَدَلْتَ عن هذه الطريق وتجشَّمت قطع بَرِّيَّة يُقيم السائرُ فيها يومين ، تَحتاج إلى حمل الماء إلى مسيرةِ يوم منها ، ثم تُفْضِى إلى مياهٍ متدفِّقة . فإذا قطعتَها وصلتَ إلى بلد الهَيَاطلة ، وهو وجَمْعُه فى الطريقِ الذى آثرتَ سلوكَها ، فتدخل البلدَ بغير حربٍ » .

« فحملته الاستنامةُ إليه – لما رآه بِه – على تصديقه [٣] ، ولَحِجَ فى البَرِّية بجميعِ جيشه [٤] ، – وقد كان وَاطَأَ [الوزيرُ] الملكَ على تكمين جَمْعٍ له آخر فى البرِّية [٥] –، فسار يومَه وبعضَ غدِه فى قفرٍ لا يوجد به ماء ولاَ نَبْتٌ ،

---

(١) المسالح : جمع مسلحة ، وهو الموضع المخوف يكون فيه جماعة بسلاحهم يرقبون العدو لئلا يطرقهم على غفلة ، فإذا رأوه أعلموا أصحابهم ليتأهبوا له . (ش) .

(٢) استجلى صاحبه الأمر : طلب أن يجلوه له ويكشفه . (ش) .

(٣) استنام إليه : اطمأن وسكن ، حتى كأنه فى نوم وغفلة . (ش) .

(٤) لحج فى البرية : مال إليها ، ودخل فيها . (ش) .

(٥) واطأه على الأمر : وافقه عليه اتفاقا . كمن الجمع تكمينا : جعله كمينا مختفيا فى مكمن لايفطن له العدو . (ش) .

فتساقطت الدوابُّ من العَطَش ، وٱفترق الجيش لطَلَب الخلاصِ ، وخَرَج عليه مِنْسَرٌ من جيش الهياطلة فأَمَرُوا عليهم (١) ، وأخذوا فيروزًا أسيرًا . فمنَّ عليهِ ملكُ الهياطلة بالإمساكِ عن قتله (٢) ، وجمع وجوه بلده وأضافَ إليهم وجوهًا من عسكر فيروز (٣) ، وٱستحلفَ فيروزًا يحضرتهم أنه لا يجاوزُ حَجرًا جعله فصْلًا مشتركا بينه وبينه . وأثبتَ المُفارَقة فى صحيفةٍ بخطٍّ فيروز ، وأشهد عليه الجماعةَ ، وأطلقه على غايةٍ من التبجيل والإكرام .

« فدخلتْ فيروزًا خَجْلةٌ من رجوعه إلى مملكته بعْد أسْرِ ملك الهياطلة له وتَعْفِيرِه به (٤) ، وحَدَّثته نفسُه بمعاودة قتاله ، فخرج إليه . وسوّلت له نفسه أَنه إنْ حَمَل الحجَر حتى يدخُل به بلد الهياطلة لم يَحْنَثْ فى يمينه ، فحمله بين يديه وسار بجمع كثير . وخرج إليه ملك الهياطلة ، فالتقيا فى مُنْتصَف طريقَيْهما .

« فلمّا ترا آى الجمعَان ، ٱنفرد ملكُ الهياطلة عن جمعِه ، وسأل فيروزًا مُوَازاتَه ليسمع منه شيئًا . فبرَز فيروز . فقال له : « أنا وإيّاك فى قَبْضة من حَنِثْتَ فى اليمين به ، وهو عزَّ وجلّ يشكرُ للمحسن إحسانَه ، ويعاقب المسىءَ بإساءَته . وقد أنعمتُ عليك ، وأحسنتُ إليك ، وأنا أُخَوّفك الله وأحذِّرُك سَطَواتِه ، فإنى أعلم أنّ حياءَك مما جرَى عليك هو الذى رَدَّك ، فينبغى أن يكونَ استحياؤُك من الله عز وجل أشدَّ من استحيائك من خَلْقه . وليس يُخْرِجك من يمينك حَمْلُ هذا الحجر بين يديك ، لأنّ اليمين إنما تكون على نِيّة المستحِلف لاعلى نِيّة المستحلَف . فتدَّبرْ قولى ، واعلَمْ أن من سَمعَك من أصحابى على غاية من الثقة بالله فى نصره ،

---

(١) المنسر : جماعة الخيل مابين المائة إلى المائتين تنقض على العدو . أمروا عليهم : كثروا عليهم فغلبوهم . (ش) .

(٢) منّ على الأسير : أنعم عليه بإطلاقه بعد الظفر به . (ش) .

(٣) المفارقة : العهد الذى يقع عليه الاتفاق بين اثنين ثم يفترقان على الوفاء به . (ش) .

(٤) ع : « وتمعيره » ، ج : « وتعييره » والمثبت رواية ش . عفره وعفر به : ألصقه بالعفر وهو التراب ، يريد : أذله وحقره . (ش) .

ومن سَمِعك من أصحابك على ذُعْر من أن تَهْلِك بحَوْبِك[١] » . فقال له : « لستُ أرجع عن قتالك » .

« فأمر أن تُرَكَّب الصحيفةُ على أطول رمحٍ فى العسكر وحَمَلَ عليه ، فهُزِم جيشُ فيروز ، وقُتِل فيروز فى المعركة » .

* * *

ابن الزيات والمتوكل

٣٤ - وسمعتُ أبا جعفر محمد بن هرثمة يقول :

« كان محمد بن عبد الملك الزيات [٢] يسعى على المتوكِّل - فى أيّام الواثق [٣] ، ويحرِّضه عليه ، فتغيّرتْ عليه نيّته ، حتى أدَّاه ذلك إلى حبسه عند محمد بن عبد الملك .

« فسمعت المتوكل يقول - فى اليوم الذى تقدَّم فى إدخاله إلى التَّنُّور الحديد - : لم يُمْنَ أحدٌ بمثل ما مُنِيتُ به من ٱبن الزيّات ! ضَيَّق علىَّ محبسى ، وَمَنَعنى مما اقتَضَتْنِيه عادَتى . وكنتُ قد رَبَّيت وَفْرَةَ فلم يُطلق [لى] تَنظِيفها [٤] ، فكُثرت الدَّوَابُّ فيها . وتأدّى ذلك إلى والدتى ، فكتبت إلى الواثق رُقعةً ، فقال لمحمد بن عبد الملك : « أَطلقْ لجعفر طَمَّ شَعَرِه [٥] ، وتنظيفَ ثَوْبه وتطييبَه ! » . فانصرف كالمَغِيظ وضَرَب الموكَّل بِى ، وقال : « تركتَ مَحْبِس جعفرٍ شارعًا من

---

(١) الحوب : الإثم العظيم . (ش) .

(٢) هو أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة المعروف بابن الزيات ، وزير المعتصم . كان من أهل الأدب الظاهر ، والفضل الباهر . ثم لما ولى المتوكل كان فى نفسه منه شئ وأغراه به أحمد بن أبى دُواد ، فقبض عليه ثم وضعه فى التنور فمات وذلك فى سنة ٢٣٣ هـ . ابن خلكان ج ٥ ص ٩٤

(٣) هو هارون بن المعتصم بن الرشيد ، أمه قراطيس أَمَة ، ولد سنة ١٩٦ . بويع له سنة ٢٢٧ ، ثم استخلف على السلطنة أشناس التركى ، وهو أول خليفة استخلف سلطانا وتوفى الواثق سنة ٢٣٢هـ . السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٩٣

(٤) الوفرة : شعر الرأس إذا بلغ إلى شحمة الأذن . أطلق له أن يفعل كذا : أذن له . (ش) .

(٥) طمّ شعره : جزّه ، أو عض منه ولم يأخذه كله . (ش) .

الشوارع حتى سَهُل شكوى أُمِّهِ ! » . ثم أمر بإخراجى ، فخرجت ، فوجدتُ أَمارات الغضَبِ فى وجهه ، فوقفت ساعةً لا يرفَعُ فيها وجهَه إلىَّ ، ثم قال : « نِطْعٌ » [١] ، - فأوهمنى أنَّ الواثق أمر بضَرْب عنقى - فبُسِط بين يديه ، ثم أوْمى إلى الغلمان بإدخالى فيه ، ولم أشُكَّ فى القتلِ ، ثم قال : « الحجّام » [٢] ، فقلت : « أظّنه يَخْلَع أضراسِى قبل قَتْلى » ، وأنا فى سائرِ هذا قائمٌ . فلمّا وافَى الحجَّام قال : « ٱحلِقْ شَعَره » ، فأجلسنى يحلق شعرى . فآليْتُ على نفسى أنّى لا أستبقيه لحظةً إن ظَفِرْتُ بالخلافة » . فمات محمد بن عبد الملك بالتنور فى اليوم الثالث » .

* * *

ابن سليمان وجلاد

٣٥ - وحدّثنى نسيمٌ خادمُ أحمد بن طولون ، قال :

« صار إلىَّ ابن سليمان بن ثابت - وكان ٱبنُ سليمان هذا يكتُب لخادمٍ يعرف بشُقَيْر ، يتقلَّد الطِّراز من خِدَم السلطان [٣] ، ثم عمل سليمانُ بعد ذلك لأحمد بن طولون على أملاكه - ومعه رُقْعةٌ ، فقال : « توصِّلها لى إلى الأمير ؟ » . فقرأتُها ، فكان يذكر فيها أن شُقَيْرًا أودَع أباه أربع مائة ألف دينار . فلمَّا قرأها الأمير قال : « انظُر ما تَقُول وٱصدُقْنى عنه ! » ، فقال : « الأمرُ والله على ماوصفته للأمير » ، فقال : أمْسِكْ عن هذا ، وٱطوِ مجيئَك إلىَّ عن أبيك وعن سائر الناس ، وٱنصرِف مَكلُوًّا » [٤] .

فقال : « فكُثر تعجُّبى من إمساكه عن ذكر هذا لأبِيه . فلم يمض حولٌ حتى

---

(١) النطع : فراش من جلد ، وأكثر مايوضع عند القتل ليكون فيه الدم لئلا يفسد البساط . (ش) .

(٢) الحجام : هو الذى يخرج الدم الفاسد بالمحاجم التى تمصه ، وكان الحجام فى زمانهم يتولى بعض الطب كخلع الأضراس وعلاجها وما إلى ذلك . (ش) .

(٣) الطراز : هو الموضع الذى تنسج فيه الثياب - معامل الثياب . (ش) .

(٤) كلأه : حفظه وحرسه ، ومكلوءا محفوظا محروسا ، وتركت الهمزة فصارت (مكلوا) ، (ش) .

مات سليمان بن ثابت ، فأظهَر غمًّا به وتفجُّعًا عليه . ثم دعا بابنه الرافع للرقعة ، فردَّ إليه ماكان بيد أبيه من أملاكه ، وضمَّ إليه من الرجال مَنْ تَقْوَى به يَدُهُ . وأقام به شهورًا ثم دعاه وأنا قائم بين يديه ، فقال له : « كيف حالُك مع مُخَلَّفى أبيك ؟ وهل أنكرتَ شيئا منهم ؟ » ، فقال : « قد أعزَّ الله جانبى بالأمير ومَنَع منِّى » ، فقال له : « ٱحمل إلىَّ الأربعمائة ألف التى عندكم لشُقَيْر الخادم » ، فَلْجلَج ، فردَّ أمرَه إلى أحمد بن إسماعيل بن عمَّار [١] ، وأمره بمُطَالبته بالسَّوْط . فضربه خمسين سوطا ، ٱصطفَى ماكان له [٢] ، فلم يجد عنده بعضَ ماتَقَوّله على أبيه . وعاود مطالبتَه ، فضربه مرّةً أخرى فمات .

فقال لى : « فعجبتُ من هلاكه بهذا المقدار من الضَّرب . فأُخبرتُ أنَّ هذا المضروب كان يستزِيرُ الفواسدَ من النساء فى وُفور حاله [٣] ، فزارَتْه امرأةٌ كانت رَبيطةً لجلّادٍ بالسوط [٤] ، وعلم الجلّاد بذلك فبكَّر إليه ووقف له ، حتى إذا خرج ، ٱنكَبّ على فَخِذِهِ وقَبّله ، ثم قال : « ياسيدى ! قد أغْنَاك الله عن مَسَاءَتِى بما بسَطه من الرزق عليك وظَاهَرَه من الإحسان لديك [٥] ، وكانت مُهْجتى عندك البارحة . فإن رأيت أنْ تَهَبَها لى ! فَلَكَ منها عِوَضٌ ، وليس لى عنها مَعْدِل ! » ، فصاح فى وجهه وأمر بإبعاده . فلمَّا شُدَّ بالعُقابين ، [٦] تقدّم الجلّاد فضربَه ضرْب القَتْل فأتَى على نفسه » .

---

(١) هو المعروف بسبع شعرات : قدم إلى أحمد بن طولون من الشام فقلده الأملاك وماخرج عن الخراج ، وصرف به الحسن بن سليمان بن ثابت ، وكان أحمد بن إسماعيل قد أشار على ابن طولون بمشورة فلم يعمل بها فبسط لسانه فيه على جهة الإشفاق عليه ، وقال : ليس هو ممن تمرن فى الرياسة ، وفيه لجاج لا يؤمن عليه منه . فبلغ ذلك ابن طولون فحبسه فى المطبق حتى مات . البلوى : سيرة أحمد ابن طولون ص ١٧٨ ، ١٧٩

(٢) اصطفى واستصفى : أخرج أكثر ماله وخياره . (ش) .

(٣) استزاره : طلب زيارته . وفور الحال : سعته ووفرته . (ش) .

(٤) الربيطة : هى فى اللغة الدابة ترتبط للخدمة ، وأراد بها هنا المرأة تربط فى المنزل وتبقى لحاجة سيدها وخدمته ومتاعه وتكون من سواقط النساء . (ش) .

(٥) ظاهر الإحسان : ضاعفه وأكثره . (ش) .

(٦) العقابان : خشبتان يشبح الرجل بينهما مشدودا فيجلد ، وهى من آلات التعذيب . (ش) .

العمرى وغلمانه

٣٦ - وحدثنى نسيم الخادم أيضا :

« أنّ أحمدَ بن طولون كان مذعورًا من خُروج أبى عبد الرحمن العُمَرِىّ ، فوافاه الخبرُ بقتلِ غلمان أبى عبد الرحمن إياه وانتشارِ أمره . ثم صار إليه جماعةٌ تقارب العشرة ومعهم رأس فقالوا : « نحن غلمان العُمَرىّ ، وهذا رأسه ! » . فجمع الخاصّ والعامَّ وأدخلهم إليه ، وٱستحضر قومًا ٱستأمَنُوا إليه ، فسألهم عن الرأس ، فأجمعوا على أنه رأس أبى عبد الرحمن ، وأنّ الغلمان من خاصّته .

« فقال أحمد بن طولون لهم : « هل كان مسيئا إليكم ؟ » . قالوا : لا والله ، ولقد كان مُحْسِنًا إلينا ، ومُفْضِلا علينا » . قال : « فما حَمَلَكم على قَتْله ؟ » ، قالوا : « طلبنا الحُظْوَة عندك ، والمكانةَ منك ! » ، فقال : « قتلتم مَوْلاكم المُحْسِنَ إليكم بالتطُّرب [1] إلى المزيد ؟ » .

« ثم أمرَ بهم فشُقَّ عن جَماعتهم [2] ، وأخذتهم السِّياطُ حتى سَقَطُوا وضُرِبوا على رؤوسهم بالشُّدوخ حتى ماتوا جميعًا [3] . وأمَر بدفن رأسِ أبى عبد الرحمن » [4] .

* * *

متسلط عامل

٣٧ - وسمعتُ أبا عُبَيد علىّ بن الحسين القاضى يحدّث قال : « كانت لى بواسط حِصَّة أُؤَدِّى عنها إلى السلطان خَرْجا [5] فقدِم علينا عامِلٌ قد جُمِّع من الظُّلم ، وسوءِ التسلُّط ، وفَظَاظة الطبْع . فجمع المعامِلين بأسْرهم على التَّحيُّل له بما لا يُوصَل إليه من أملاكهم ، ولا يستحقُّه عليهم ، فضرب قوما ، وٱستخفَّ بآخرين ، فقال له رجل ممَّن حضر : « إن رأيتَ أن تؤخِّرنى إلى نصف النهار ! » ،

---

(١) تطرب : أخذه الطرب والفرح ، وتطرب إليه : اهتز له وطمع فيه . (ش) .

(٢) شق عنهم : أى شقوا عنهم ثيابهم يهيئونهم للجلد بالسياط . (ش) .

(٣) الشدوخ : جمع شدخ ، وهو الرخص الطرى من الشجر ، يضرب به حتى يشدخ رأس المضروب . (ش) .

(٤) المغرب فى حلى المغرب - القسم الخاص بمصر - ص ٩٤

(٥) الحصة : النصيب الموروث من الأرض ، والخرج : المال الذى يؤدى على الأرض . (ش) .

فقال له : « لعلك ممّن يقول : إنّ من عَمودٍ إلى عَمود فرَجًا ! » فقال له الرجلُ : « أنا والله أعتقد من لحظة إلى لحظةٍ فرجا يُرْجى مِن ٱلله » ، فتضاحك من كلامه . فوالله مامضت ساعة حتّى دخلتْ إلينا - فى الموضع الذى كان فيه - رَعْلَةٌ من الخوارج وهى تقول : « السُّلَيطِين السليطين !! » [١] ، فقطَّعتْهُ بأسيافها وخرجتْ ، ولم تقتل غيره ، ولا طلبت شيئًا لأحد . فعلمتُ أنهم عقُوبة ٱعْتَمدته » .

* * *

عامل الصدقة ومتظلم

٣٨ - وحدّثنى عمر بن يزيد البَرْقىّ - وكان جميل المذهب - قال : « حضرتُ مُصَدِّقا شديدَ الاستحلال [٢] ، بعيدًا من الرأفة ، وهو جالس على رابيةٍ ، وبين يديه حِوَاءٌ يحتازُ به ما يُحصَّل له من الإبل [٣] . قال : « فعُرِضَتْ نَعمُ رجلٍ حسِن الطريقةِ ، مُتَعالَم بعفافِ الطُّعْمَة [٤] . فتخيَّر عليه المصدِّق ما احتازه من إبله ، وٱستعملَ من سوءِ التحكم عليهِ مالا يصبر عليه غيره . فأمْسَك ، ثم نظر بعد ٱنفصال مابينهما إلى فصيلٍ سمِينٍ كان فى إبله ؛ فقال لغلمانه : « خُذُوا هذا الفصيلَ حتى يُصْلَح لنا غَدَاءً » ، فقال صاحبُ الإبل له : « قد أخذت زيادةً على حقك ، فما هذا ؟ » ، قال : « لابدَّ لى من أخذه » ، قال : « فإنّى لا أُسلّمه » .

فأمر بوَجْئِ عنُقِه [٥] ، وأُخذت مقادَتُه من يده ، فصاح بأعلى صوته : « كُلْ هذا بِحَيْنِك ياجبَّارُ ! » [٦] . فحلف لى عُمَر أنه جاءَ من الحِواءِ فحلٌ - وخرج منه

---

(١) تصغير سلطان . (ش) .

(٢) المصدق هو الذى يأخذ حقوق الصدقة من الإبل والغنم . (ش) .

(٣) الحواء : المكان الذى يحوى الإبل وغيرها من الأشياء ، أى : يضمها ويجمعها . (ش) .

(٤) الطعمة : وجه الارتفاق والاكتساب . (ش) .

(٥) الوجء : اللكز ، أو ضرب العنق بالأيدى أو بالحديد . (ش) .

(٦) ع ، ج : « كل هذا بعينك ياجبار » وبهامش ج : « كل هذا إلخ : الخطاب لله عز وجل والمعنى أيصنع كل هذا جهارًا يارب وأنت الجبار المنتقم فلا تعاقب عليه ؟ » والمثبت رواية ش وبهامشها : « كله بحينك ، أى : كله ومعه حينك ، والحين : الموت » .

وهو يَرْغُو –، فأخذ بعضُده ، ولم يزَلْ يضربُ به الأرضَ حتّى قتله . وانصرفَ الرَّجل بفصيله » .

* * *

عدى بن زيد والنعمان

٣٩ – وفيما أخبرَ به الهيثم بن عديّ [١] قال :

« كان عديُّ بن زيد [٢] قد تقدّم عند كِسرى أَبْرَويزَ [٣] فى ترجمة العربيّ إلى الفارسّى ، وكان رجلًا جارًا للنعمان بن المنذر [٤] ، فرام منه النعمان أن يكون عينًا له على كسرى ، فامتنع من ذلك ، ولم يرْض بهذه السَّجِيَّة [٥] . فتركه النعمان حتى ٱطمأنّ إليه ، ثم سأله أن يزورَه . فكلَّم كسرى ، وسأله أن يأذنَ له فى زيارته شهرًا واحدًا ، ونصَّب عَدِيٌّ ٱبنَه مكانَه – وكان حُلْو الشاهد [٦] مضطلعا بما يُسنَد إليه –، فأذن له . فلمّا حَصَل فى يد النعمان قَتَله ، وكتَب إلى ٱبنه يُخْبره بأنه ماتَ حتفَ أنْفه [٧] ، وأنَّه على غاية من الأسَى عليه [٨] . وتأدَّى خبر عديٍّ إلى ٱبنه على الصّحة ، فلم يَخْرَق فيه [٩] ، وأقام يتتبَّعُ غَوائله ، ويعمل الحيلة فى ٱفْتِرَاصِ وِتْرِهِ [١٠] .

---

(١) هو الهيثم بن عدى بن عبد الرحمن الطائى ، كان راوية للأخبار ، ومن كتبه : كتاب المثالب ، وكتاب المعمرين ، وكتاب بيوتات العرب ، وتاريخ العجم وبنى أمية ، وغير ذلك . توفى سنة ٢٠٧ هـ . ابن خلكان ج ٦ ص ١٠٦

(٢) انظر فى عدى بن زيد : الشعر والشعراء ج ١ ص ٢٢٥ ، المعارف ص ٦٤٩

(٣) انظر فى أبرويز بن هرمز : المعارف ص ٦٦٥

(٤) انظر فى النعمان بن المنذر : ابن قتيبة : المعارف ص ٦٤٩ ، ٦٥٠

(٥) السجية : الطبيعة والخلق والخصلة . (ش) .

(٦) حلو الشاهد : حلو العبارة واللفظ جميلهما . يقال : ماله رواء ولا شاهد ، أى : ماله منظر ولا لسان يشهد له . (ش) .

(٧) الحتف : الموت نفسه ، وحتف أنفه : أى أن موته كان بخروج روحه مع تنفسه من أنفه وهو على فراشه ، لم يقتل فى حرب . (ش) .

(٨) الأسى : الحزن . (ش) .

(٩) خرق فى الشئ : دهش ثم تعجل فلم يحكم عمله يقول : لم يتعجل . (ش) .

(١٠) الوتر : الثأر . افترص الشئ : اغتنمه وانتهزه عند سنوح الفرصة . (ش) .

فجرى فى يوم من الأيام ذكرُ الجوارى بين كسرى وبين ابن عدىٍّ – وكان أبرويز مُستَهْتَرا بهنّ –، فقال ابن عدىّ : « أحسنُ النساء حُرَقة بنت النعمان » . فكتب أبرويز إلى النعمان كتابًا يأمره فيه بحمل حُرَقَةَ ابنتِه إليه . فعظم هذا على النعمان ، وكتب إليه كتابًا يذكر فيه قَشَفَ [١] تربيةِ العربِ لأولادها ، وتقصيرِهم ببَذاذة الهيئة ووَسَخ المِهْنة [٢] ، وأَنَّ فى عِين العراق للملك عِوَضًا منهن [٣] ؛ وأنفَذ الكتاب إلى كسرى . فأمر كسرى ابنَ عدىّ أنْ يقرأه عليه ، فأمَرَّه على طَرْفِه ثم ألقاه [٤] ، وضرب بيده على جَبينِه ، وقال : « لا يستطيعُ لسانى مواجهةَ المِلك بما فيه ! » ، فعزم عليه الملك ليُخْبِرَنَّه . فقال : « ابنتى لا تَصْلُح لك ، فإذا قَرِمْت إلى الجماعِ فعليك بالبَقَر » [٥] . فغضب كسرى ، وأنفذ رُسُلا إليه فأُشْخِص . فلمّا قرب من مقرِّ كسرى ، أخرج أربعةَ آلافِ جارية بالحُلىِّ وفاخرِ الكُسْوَة ، وأذِن له ، ثم قال له بالفارسية : « ياكلب ! مَنْ كان له هؤلاء يصلُح له مجامعةُ البقر ! » ، وأمر بشدٍّ يديه ورجليه ، وألقاه فى الأرض ، وأطلق الفيَلَة عليه فوَطِئته ، حتى مات تحت قوائمها » .

* * *

شريف ومريض

٤٠ – وفيما جاء به الزُّبيْرُ بن بكّار [٦] ، قال :

« اجتاز رجُل من أشراف المدينةِ بمريض مُلْقًى على كُناسةٍ قريبة من منزلِ

---

(١) القشف : رثاثة الهيئة وسوء الحال وضيق العيش . ومنه المتقشف : الذى يتبلغ بالقوت وبالمرقع . (ش) .

(٢) البذاذة : رثاثة الهيئة وترك الزينة . والمهنة : الخدمة والعمل والامتهان . (ش) .

(٣) العين : جمع عيناء ، وهى المرأة الواسعة العينين الجميلتهما . والعيناء أيضا : البقرة لاتساع عينها . (ش) .

(٤) أمرّه على طرفه : أى جعله أمام عينيه وأسرع القراءة . (ش) .

(٥) قرم إلى الشئ : اشتهاه وهم به (ش) .

(٦) هو أبو عبد الله الزبير بن بكار القرشى الأسدى ؛ كان من أعيان العلماء ، وتولى القضاء بمكة ، وصنف الكتب النافعة ، منها كتاب أنساب قريش ، وقد جمع فيه شيئا كثيرا ، وعليه اعتماد الناس فى معرفة نسب القرشيين . توفى سنة ٢٥٦ هـ . ابن خلكان ج ٢ ص ٣١١

رجل من الأولياء [١] اختلَّت حاله [٢] ، ومَرض ولا قَيِّمَ عليه [٣] وتبرّم به رُفقاؤه فأخرجوه من منزلهم ، وهو مُلْقًى فى الطريق . فأمر الشريف بحمله إلى منزله ، وتقدَّم إلى ابنة عمه فى حُسْنِ القيام عليه بحَشَمِها ، وأن تُرَفِّه عيشَه إلى أن تقْضِيَ عِلَّتهُ . فابتدره كُلّ من فى منزلِ الشريفِ بالخدمة حتى تكاملت صحَّته ، وصار فى منزلهم كأحدهم ، وقَفَلَ إلى دِمَشْق [٤] .

فلمّا كان فى الوقت الذى توجه جيشُ يزيد [٥] للحَرَّةِ [٦] ، وَافَى فوقَف على باب دارِهم ، فظنُّوا به أنَّه وَافَى لحمايتهم ، وحُسْنِ المدافعةِ عنهم ، ليَقْضِيَهم سَوَالِفَهم لديه [٧] . فدخلَ الدار ومعه ثلاثة غلمان ، فلما تمكّن منها أخذُوا فى جَمْع الأثاث ، فقال لهم الشريف : « ماهذا ؟ » ، فقال : « إنى استوهبتُ دارَك بما فيها من الأمير ووهبها لى ، وكنتُ أحقّ الناس بها ، إذ كانت الأحوال بينى وبينكم وَكِيدة » ، فقال له الشريف : « رجعتَ يا ابن اللّخْناء إلى لُؤْم أصلك ، وفساد مُرَكَّبك » ثم عَلاه بسيفه . وفرّ الغلمان ، وهَدَأَتْ وقْدَةُ الفتنةِ ، وطُلَّ دَمُهُ » [٨] .

* * *

مولى للعباسيين وأموى

٤١ – وحدَّثنى نافع بن مَصْقَلة الْحِمْصِيّ ، قال : سمعتُ أبى يقول : « رأيت مشايخَنا مجتمعين على أمرٍ لحقهُ أسْلافهم : أنَّه كان يسكن بحِمْص شابٌّ من أهلِ العراق ، حَسنِ الصُّورة ، ليّنِ العريكة ، فأقام معهم مدة . ثم صار

---

(١) الأولياء : يريد أولياء الأمور أى عمّال الموالى . وهذا التعبير مألوف فى هذا العهد . (ج) .

(٢) اختلت حاله : افتقر . (ش) .

(٣) القيم : المدبر الذى يقوم على أمره . (ش) .

(٤) قفل : رجع . (ش) .

(٥) هو يزيد بن معاوية الأموى ، ثانى خلفاء الدولة الأموية . توفى سنة ٦٤ هـ . السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٣٣

(٦) الحرة : هى إحدى حرتى المدينة ، وهى حرة واقم وكانت وقعة الحرة فى سنة ٦٣ هـ . ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٢٤٩

(٧) السوالف : جمع سالفة ، وهى الإحسان السابق ، أو الإساءة السابقة . (ش) .

(٨) طل دمه : أهدر وأضيع ، فلم تكن له دية ولا ثأر . (ش) .

الأمر بعدَ ذلك إلى بنى العباس ، فتقلّد ذلك الفتى حمص ، وكان مولًى من موالى أبى العباس . فلما دَخَلها قصد إلى دار رئيس كان بها - من أصحاب بنى أمية - فذبحَه فيها وجماعةً من غلمانه . ثم خَرَج .

فأحسن السيرةَ ، وألان الجانبَ ، فقيل له : « ليس يُشْبه ما أنت عليه ، مافرَط منك إلى الرجل الذى ذَبَحْتَه وشَمْلَه ! » ، فقالَ : « اسمعوا مِنِّى ماجَرى على عِلّتِه .

« اجتزتُ به - وقد نظّفتُ أثوابًا لى لا أملك غيرَها ، وقد دُعِيت إلى أمرٍ لا يسعُنى التأخُّرُ عنه ، أحتاجُ فيه إلى حُسْنِ الهيئة وإظهار التجمُّل ، ومعى رسولُ مَنِ اسْتَحْضَرَنى - وهو قاعدٌ على الباب ، فراثت دابّتى [١] بحيث تقع عليه [٢] من رَحَبَةٍ مبلَّطة لداره . فأمَّصنى [٣] ، وأمر الغلمان بترجيلى وضرْبى ، فركبتنى أيديهم . ثم حلف ألّا أبْرَحَ حتى أكنُسَ رَوْث دَوَابّه بيدِى فى كُمِّى ، وأحملَه فى ثوبى وحِجْرِى ، وأُخِذْتُ فُجررت إلى ذلك ، ولم تزل حاشيته تضحك مما نزَل بى ، فحدّثت مولاىَ ، فاستحلفنى بحقّه على غليظِ ما أَتَيْتُه إليه » .

* * *

أحد الأكاسرة وولده

٤٢ - ومما قرأته من سِيرَ العجم :

أن جماعة المنجِّمين حكموا لبعض الأكاسرة أنَّ ابنه يقْتله ويتولَّى ملكه ، فعَمَد كسرى إلى سُمومٍ وَحِيّةٍ فجعلها فى قواريرَ [٤] ، وختمها وكَتَبَ عليها : « دواءٌ للجماع ، الشَّرْبة مثقال » ، وكانت وَزْنة قيراط تقتُل من تلك السموم . وقال : « إن كان الأمر كما حكاه المنجِّمون فسآخذ بطائلتى منه » [٥] . فعدا عليه

---

(١) راث الفرس وغيره من الحيوان : أرسل روثه ورجيعه . (ش) .

(٢) كذا فى ش ، ع . وفى ج : « بحيث تقع عينه » وبهامشها : « بحيث تقع عينه إلخ : أى أن الدابة راثت فى مكان تقع عليه عينه حين يكون أمام الباب جالسا فى رحبة مبلطة . وفى الأصل : تقع عليه ، وهو تحريف » .

(٣) أمص الرجل : إذا اشتمه فقال « يامصان » وهو اللئيم الراضع . يريد سبه سبا قبيحا . (ش) .

(٤) سم وحىّ ، وموت وحى : سريع . (ش) .

(٥) الطائلة : الثأر . (ش) .

ولده وقتله ، وكان شديد المحبَّة للجماع ، ورأى تلك القوارير ، فشرب مثْقالا فمات .

* * *

مروان الجعدى
خالد بن سهم

٤٣ - وحدثنى أحمد بن أبى يعقوب ، قال حدثنى أبى ، عن جدِّى واضح ، قال :

« سمعت خالد بن سهم ، يحدثُ المنصور - وكانَ هذا الرجل خاصًا بمروان بن محمد الجعدى [١] - فطلب منه مروان جارية له كان يُحبُّها ، وتجرَّم عليه [٢] ، فأطال حبسَه ، وأخذ الجارية منه . وكانت ذَا رأيٍ ونَجْدَة [٣] . فلما استفحل أمر أبى مسلم وكسر عساكرَ مروان ، أخرجَه من الحبس ووَعَده جميلًا - ، قال خالد :

« كان مروان يضحكُ من زِيّ المسوِّدَة [٤] ويقول : « لو أَسَرناهم مابلغنا بهم مابلغوا بأنفسهم من التشويه والشُّهْرة ! » [٥] . فلما ٱضطُرَّ إلى مُكافحتهم وَواقعهم ، رأيته قد تَهَيَّبَ مُعارَكتهم ، فقال لى : « يا أبا يزيد ! - وماكَنَّانى قبل ذلك اليوم -، إنّى قد ٱرتَعْت ، فهل ذلك بَيِّنٌ فيَّ ؟ » ، قلت : « بلى يا أمير المؤمنين ! » ،- وكنت أداجِنُه ، [٦] ويَسُرُّنى حُؤُول أمره [٧] ، فقال : « ما أجِد قلبى يُطيق مُواقَعتهم ! » ، فقلت : « إن كانَ هذا ، فتحصَّنْ منهم بالانهزامِ ، فإن خيلك أَنْجَى من خيلهم » [٨] .

---

(١) هو آخر خلفاء بنى أمية المسمى « مروان الحمار » . (ش) .

(٢) تجرَّم عليه : تجنى عليه . (ش) .

(٣) النجدة : الشجاعة والمضاء والبأس الشديد . (ش) .

(٤) المسودة : هم العباسيون ، فقد جعلوا شعارهم السواد . (ش) .

(٥) الشهرة : الفضيحة والشنعة الظاهرة . (ش) .

(٦) داجنه : لازمه وأحسن مخالطته بالرياء والمداهنة . (ش) .

(٧) حال الأمر يحول حؤولا : تغير وتبدّل وتحوّل فزال . (ش) .

(٨) أنجى من خيلهم : أسرع نجاء ، والنجاء : العدو السريع . (ش) .

فانهزم ، وتوقَّف أصحابُ أبي مسلم عن طلبه ، فلما بلغ إلى سَوَاده [١] قال لى : « قد عزمتُ على الدخول إلى بلد الروم » . - وكان من أصوب تدبيرٍ له -، فنَفِسْت عليه بالرَّأى [٢] ، وٱستعملتُ مغالطته فقلت : « تدخلُ بأحْداثٍ من وَلَدك وشَمْلِك [٣] مستجيرين بكافرٍ قد أَمِن سِرْبُه [٤] ، واستقام أمره ؛ ولعلّ ولدَك يروقُهم مايرونه فى مملكته ، فيحملُهم ذلك على التنصُّر ! ولأَنْ تَمادى فى مسيرِك حتى تدخل مصر فتجد فيها الرجال والكُرَاع والمالَ [٥] ، تملك بها ٱختيارَك [خيرٌ لك] [٦] . فركن إلى قولى ، فسْرنا . فلما دَخلْنا مصر خَرَج إلى صعيدها ، واستأمنتُ إلى عامرٍ - لحالٍ كانت بينى وبينه -، وقُتِل ببُوصِير الأَشْمُونين » .

* * *

أحمد بن طو
وابن المد

٤٤ - ولما قدِم أحمد بن طُولون إلى مصر متقلّدا بها عمَل المعونة [٧] ، أَهْدى إليه أحمد بن مدبّر من دِقّ مصر [٨] ، ودوابِّها ، والرقيقِ المجلوب إليها ، مامقداره عشرة آلاف دينار ، فردَّ ذلك عليه ، وذكر أنه لا حاجة له بشئ منه .

---

(١) سواد العسكر من الجيش : مايشتمل عليه من الآلات والدواب ، ويكون مجتمع سواد الجيش (المعسكر) ، (ش) .

(٢) نفس عليه الشئ : حسده عليه وضنّ عليه به ، (ش) .

(٣) الأحداث : الصغار ، جمع حدث ، (ش) .

(٤ أمن سربه : أى اطمأنت نفسه ، والسرب : النفس . (ش) .

(٥) الكراع : اسم لجماعة الخيل والسلاح . (ش) .

(٦) خير لك : زيدت ليستقيم الكلام . (ج) .

(٧) عمل المعونة : يراد به معونة الخليفة فى حكم مصر ، وذلك أنه لما تولى المعتزّ بالله وقتل المستعين ، قلد المعتز بالله باكباك ولاية مصر على أن يلتمس من يخلفه عليها ، فقيل له إن أحمد بن طولون هو الثقة الأمين ، فقلده خلافته وضم إليه الجيش . ورحل ابن طولون إلى مصر يوم الأربعاء لسبع بقين من شهر رمضان سنة ٢٤٥ مقلّدا للقصبة دون غيرها من الأعمال الخارجة عنها مثل الإسكندرية وغيرها . (ج) .

(٨) دق مصر : هى الثياب الرقيقة الدقيقة الصنع التى كانت تصنع بها ، وتعرف بالقباطى جمع قبطية (ش) .

فثقل ذلك على ابن مدبّر ، وقال : « ماينبغى أن يثق السلطانُ - بمن لم يكُنْ لعشرة ألف دينار فى عينه قَدْرٌ - على طَرَفٍ من أطراف مَمْلكته ! » [١] .

فلما مضت أيامٌ بَعَث إليه : « قد كنتَ أنفذْت إلىَّ طائفةً من برِّك فرددتُها عند وُقوع الاستغناء عنها ، وقد بلغنى أَنَّ عندك مائةُ رجل من مولَّدة الغُوْر [٢] ، وبى إليهم أمسُّ حاجة » . قال ابن المدبر : « قد ظَهَرت فى هذا الرجل علامةٌ أخرى ، يَرُدُّ الأعراض والأموال ، ويستهدى الرجال ! » [٣] .

وكان حسينُ بن شعرة - مضحكُ المتوكل على الله - قد انضوى [٤] إليه ، فحمَى به ضياعَه وأملاكَه . ووقف على استثقال ابن مدبّر لأحمد بن طولون ، وأخرج حِكايته فى تَزَمُّتِهِ [٥] وكلامِه ، فيضحكُ ٱبن مدبّر ومن حضره ، فٱتصل ذلك بٱبن طولون ، فأحضره ثم قال له : « بلغنى أنك تتنادَرُ بى [٦] ، ولك فى الناس مندوحةٌ فٱحذرنى ، فإنك إن وقعت لم ينفعك ٱبن المدبّر ولا غَيْرُه » ، فجحد هذا وٱعتذر إليه منه . ثم انصرف إلى ٱبن المدبر وقال : « ياسيدى ! لو شاهدتَ أحمد بن طولون يُؤَنّبنى ! » ، فقال « ماقال لك ؟ » ، قال : « ٱصبِرْ حتى أُرِيَك حكايةَ صُورَته ومُعَاتبته » ، ثم تلبَّسَ وجَلَس يَحْكِيه ويقتَصُّ مالقِيَه به .[٧] ثم اتصل ذلك بأحمد بن طولون فأمسَك عنه ، وتتبَّع غوائله .

---

(١) المغرب فى حلى المغرب - القسم الخاص بمصر ص ٧٧

(٢) الغور : بلاد موحشة بين هراة وغزنة . ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٢١٨ . وفى سيرة أحمد بن طولون للبلوى ص ٤٤ فى وصف مجيئه إلى مصر : ونظر ابن طولون بين يدى أحمد بن مدبر مائة غلام من مولدى الغور ، قد انتخبهم وجعلهم عدة وجمالا ، وكان لهم خلق حسن ، وطول أجسام، وبأس يعرفون به شديد .

(٣) المغرب ص ٧٨

(٤) انضوى إليه : مال إليه ، واحتمى به . (ش) .

(٥) التزمت : الوقار والسكون وقلة الكلام والضحك ، وكان ابن طولون من أشد الناس وقارا . (ش) .

(٦) تنادر به : تهزأ وسخر وجعله من نوادره . (ش) .

(٧) اقتص الشئ : تتبعه واحدة واحدة . (ش) .

« وٱضطربت الرعية لِنزاعِ السِّعْر (١) ، وقد بلغ ثلاثة أرادبّ حنطةٍ بدينار . فركب وتقدَّم بعُقوبة القمّاحين ، وٱزدحمت النظّارَة من السطوح عليه . فوقع مِرْكَنٌ فيه ريحان إلى الأرض (٢) ، بمزاحمة مَنْ تشوَّف إليه من النساء (٣) ، فمسَح كَفَلَ دابّة أحمد بن طولون (٤) ، فسأل عن الدار : « لمن هى ؟ » ، فقالوا « لحسين بن شعرة ! » ، فأحضره وضربَه ثلاثمائة سوط ، وطاف به . وكان ما أوقعه به من أجل متقدّم سَوَالِفِه إليه ، ولم يفلح الحسين بن شعرة بعدها .

« وزاد أمر أحمد بن طولون فى القوّة وزيادة المال ووفور الكفاية ، حتى تهيَّبه ابن مدبر ، فحدثنى أبو العباس الطَّرَسُوسِىّ ، أنه سمع أحمد بن طولون يقول له : « يا أبا الحسن ! أنشُدُك الله إن تعرَّضْت لى ولَا تَرَسَّمْتَ بعدَواتى (٥) ، فقد ٱجتهدت فى ٱستصلاحك فلم أصِلْ إلى ذلك » ، فقال له ٱبن مدبر : « والله ما أرُدُّ أمْرك فيما أتقلَّده ، وإنى فيه كالمقيم من قِبَلَك ، فأىَّ شئ أنكرت علىَّ حتى أتجنَّبه ؟ » ، فقال : « أُنْكِر عليك المكاتبةَ إلى الحضرة (٦) ، وقد قلَّدتْك البَغْىَ » ، فحلف له ٱبن المدبر أنه لا يكتب إلا بشكره .

« وصُرِف ٱبن المدَّبر عن مصر بأبى أيوب - ابن أخت أبى الوزيْر - فلما أجمع الشُّخوص عنها قال له أحمد بن طولون : « يا أبا الحسن ، لو أردتُ بك سوءًا لقَدَرْتُ عليه ، وأحتاج إلى أن تجدِّد تلك اليمين » ، فحلف له بالمحرَّجات أَنه لا يألُو حرصًا فى تزيين آثارِه (٧) وتطييبِ أخباره ، وأَشهد عليه الله بذلك . وخرج عن مصر متقلّدا للشام فأقام مع ماجور .

(١) نزاع السعر : ارتفاعه وغلاؤه . (ش) .
(٢) المركن : إجانة يستنبت فيها الرياحين (قصرية) . (ش) .
(٣) تشوف إليه : تطلع إليه وتطاول لينظر . (ش) .
(٤) مسح كفلها : مس عجزها ومؤخرها . (ش) .
(٥) ترسم بالشئ : جعلها رسما له يعرف به . (ش) .
(٦) الحضرة : يريد حضرة الخلفاء من بنى العباس ببغداد . (ش) .
(٧) لا يألو : لايقصر . (ش) .

« فحدثتنى نَعْتُ مولاة أحمد بن طولون ؛ وأمُّ ثلاث بناتٍ كُنّ له – فقالت : « كنت عند مولاى بائتةً فسمعته يحلُم فى نومه ، فخفتُ أن أنبّهه فينكر علىّ هذا ، فٱنتبه وجَلَسَ ومسح عينيه وقال : « خيرٌ إن شاء الله » . فسألته عما رأى فقال : « رأيت ٱبن مدبّر قائمًا فى وسط برّية ، ومعه قوسٌ مُوَتَّرةٌ وسهام ، وأنا تِجَاهَه قائم ، ومعى جميعُ السلاح إلا القوس ، وبيننا نَهَر ، فكأنه يسدِّد السَّهم نحوى ويرمى ، فأخطأنى . وكأنّ قائلا يقول : « لو رماك يومه كلَّه لما أصابك به ، لأنه عاهدك ، وما يضرُّ هذا الفعلُ غيرَ نفسه » فكأَنه ٱشتدَّ علىّ إنهماكه فى الرمى لى ، وليس فى يدى غير سيفٍ وشَرْخ وما أشبههما [١] ، لا تعمَلُ فى البُعْدِ ، وقد حال النهر بينى وبين العبور إليه . فإنَّا على هذا ، حتى نَضَبَ النهرُ فلم يبق فيه قطرة [٢] ، فعبرت إليه ، فكأنى كنتُ كلما قَرُبت منه يصغُر ، حتى صار بمنزلة من يواريه الكَفُّ ، فأخذته بيدى أسْتَطْرِفه [٣] ، ثم ألقيته من قامتى على رأسِه فمات . فتأوَّلتُ سهامه : المكاتبةَ فىَّ والتحريضَ علىَّ ، والنهرَ الذى منعنى منه : مَقَام ماجور بدمشق ، ونُضُوبَه : موتَ ماجور ، وصغرَهُ : قدرتى عليه ، واحتيازَه فى كفِّى : قبضى عليه ، وقولَ القائل لى فى السّهام إنها تُخْطِئُك : أن الله لا يُعينه علىّ » .

« فحدّثت هذا الحديث سَعْدًا الفرغانىَّ – غلامَ ابن طولون – فقال لى ماسمعت بهذا إلا منكَ ، والذى عندى من خبرِه مطابق لهذه الرؤيا . وذلك أن الحسن بن مَخْلَد بَرِم بكيْد الكتّابِ وانتقِاض الأولياء [٤] . فكتب إلى أحمد بن طولون يذكرُ له رغبتَه فى المُقام بمصر . فكتب إليه أحمد بن طولون : « إنما أناوليُك [٥] ، ومَقَامُ صنيعةٍ من صنائعك ! » . وصوب رأيه فيما آثره . فحجَّ من

---

(١) الشرخ : النصل الذى لم يشق بعد ولم يركب عليه قائمه . (ش) .

(٢) نضب النهر نضوبا : ذهب فى باطن الأرض وغار وبعد وقل . (ش) .

(٣) استطرف الشئ : وجده طرفة ، أى طريفا غريبا . (ش) .

(٤) برم : ضاق وضجر ، وانتقاض الأولياء : نقضهم العهود وخروجهم عليه . (ش) .

(٥) الولى : التابع من عمال الدولة . (ش) .

بغداد ، وثَنَى عنانه إلى مصر ، فمنعه صاحب البذرقة (٢) . فأنفَذ كُتُبًا إلى أحمد ابن طولون ، فكان أولُ ماصدر منها أربعين كتابًا جميعًا بخطٍّ ٱبن المدبر ، يُعْظِم فيها أمرَ أحمد بن طولون ويقول : « إنه قد عزم على أن يجلس خليفةً » ، ويصفه بكل غَدْر ، فعجب منها ٱبن طولون . ثم مات ماجور ، واحتاز دمشقَ والشامَ ، وأنفذنى إلى الرَّمْلة فقبضتُ عليه وأشخصته إليه . فأقام مدة فى حبْس ضيِّق ، وجَفْوٍ ممّا جرت به عادته (٢) ، حتى ذهب بَصَرُه ومات » .

* * *

ابن المدبر ومتقبل

٤٥ - وحدثنى سهل بن شُنَيْف ، قال :

« رجعت [مَرَّةً] مع أحمد بن محمد بن مدبر إلى داره ، فٱستقبلته ٱمرأةٌ فقالت : « أيها السيّد ! نحن مائة عَيِّل على فلانٍ المتقبِّل (٣) ، وقد ضاعَ شَمْله لحبسه ، فاتَّقِ دعوةً تعرُجُ إلى اللهِ مِنّا فِيك ! » ، فقال وهو متهزِّئٌ : « إذا عزمتم على هذا ، فليكن الدعاءُ فى السَّحَر فإنه أنجعُ له » ! قال لى سهل : « فارتعتُ من الكلمة ، فما مضى له شهر حتى تَقلد محمدُ بن هلال الخراجَ وصرفه عنه ، واجتمعا عند أحمد بن طولون ، فاهتدى محمدُ بن هلال إلى مالم يَظُنَّ أنّه يقف عليه ، لأنه أول ماناظره قال : « رزق الخراج : كذا وكذا ، وأرزاق الدواوين المضافة إليه : كذا وكذا ، فهل قبضتَ جملةَ هذه الأرزاق ؟ » ، قال ابن المدبر : « نعم ! ماحضرنى كتاب أمير المؤمنين بإطلاق جميع الرزق لك ؛ لأنه يجوز أن يكون استعملك على جميع الأعمال برِزْق الخراج وحده » . فانقطَع [إلى] ابن المدبر ، وطالَبه بالمال ، فقال : « ما يلزمنى ؟ » . ورُدَّ إلى يد محمد بن هلال ، فأُلبس جُبّةً كانت على بعض السَّاسَة (٤) ، وأقيمَ فى الطريق على كُناسة ، وخُتِمت الجبة فى عُنُقه .

---

(١) البذرقة : هى خفارة الطريق وحراسته ، والمبذرق الخفير . (ش) .

(٢) جفا الشئ جفاء وجفوا : بعد عنه ، يريد ، وابتعاد عن عادته . (ش) .

(٣) المتقبل : هو الذى يتقبل الخراج أى يتكفل بجمعه وإيراده لبيت المال ، والعيل : هو الذى يحتاج إلى من يعوله ويمونه ويتكفله ، والجمع عيال . (ش) .

(٤) الساسة : جمع سائس : وهو الذى يقوم على خدمة الدواب ورياضتها (ش) .

« فكان أوَّلَ من وافاه الامرأَةُ التى قال لها : « يكونُ دعاؤك فى السَّحَر هو أنجع له » ، فقالت : « جزاك الله يا أبا الحسن خيرًا ، فقد نفعتنا بأكثر مما ضَرَرْتَنا ؛ لأننا جرَّبنا ما أشرتَ به فوجدنَاه أنجعُ شيءٍ يُلْتَمَس [به] » . فبكى ومن حولَه من الموكَّلين به ، وانصرفت المرأة داعيةً له » .

* * *

خمارويه وابن أبى الساج

٤٦ – وكان محمد [١] بن أبى الســاج قد هادَن خُـــمارَوَيْه [٢] بن أحمد ابن طولون ، وحلفَ بالمحرَّجات أنه لا يشاقُّه ولا يُجهّز إليه جيشًا أبدًا [٣] ، وخلَّف عنده ابنه – المعروفَ بداود – رهينةً ، فسكن خُمارويه إلى هذا . ثم تواترت الأخبارُ بتجييشه عليه [٤] ، وما آثَرَه من المسير إليه ، فدعا بابنه وقال : « قد نَقَض أبوك مابينى وبينه ! » ، فقال : « ياسيدى ! ما أعرف لى أبًا غيرك » . فرَقَّ له وأجازه ، وأقَرَّ أثَرَتَه [٥] ، ثم توجَّه إلى ابن أبى الساج فالتقيا بالثنيَّة ، فحدثنى أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن القاسم بن إبراهيم بن طباطبا – وكان معه – قال :

« لما ترا آى الجمعان أمَر بإلقاء حصيرِ الصَّلاة فأُلقيتْ ، ونزلتُ معه فصلّى ركعتين ، فلما ٱستمَّهُما ، أَدْخل يده فِى خُفِّه ، فأخرج منه خَطّ ابن أبى الساج الذى حَلَف فيه بوَكِيد الأيمانِ أنه لا يحاربه ، فقال : « اللهم إنى رضيتُ بما أعطانيه من الأيمان بك ، ووثقْتُ بكفايتكَ إيایَ غدْرَه [بى] وبحِلفه واجترائه على الحِنث بما أكَّده لى اغترارًا بحلمك عنه ، فأدِلنى عليه ! » [٦] . ثم ركبَ ،

---

(١) انظر فى ابن أبى الساج : البلوى : سيرة أحمد بن طولون ص ٣١٥ ، ٣٢٠

(٢) هو أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون ، ولى مصر بعد وفاة أبيه . قتل بدمشق سنة ٢٨٢ هـ . ابن خلكان ج ٢ ص ٢٤٩

(٣) شاقه يشاقه مشاقة : خالفه وعاداه ، من الشقاق وهو غلبة العداوة والخلاف . (ش) .

(٤) جيش عليه : جمع الجيوش لقتاله (ش) .

(٥) أقرّ أثرته : أى رضى إيثاره إياه بالأبوة وأقره عليها . (ش) .

(٦) أداله عليه : جعله له الدولة عليه ونصره عليه . (ش) .

فرأيتُ مَيْمَنة خمارويه قد انهزمت ، وتبعتها مَيْسَرته ، فحمل فى شِرْذِمَة يسيرةٍ على جيش ابن أبى الساج – وهو فى غايةٍ من الوُفور – فانهزموا بأسرِهم .

فوقف على نَشَز [١] ، وأطفْتُ ومن حضره به ، فاستأمنت إلينا عِدَّة كثيرة . فقلت له : « إن مُقَامَنا أيها الأمير مع هذه الجماعة خطرٌ » فأمرنى بالمسير بهم إلى مستَقَرِّ سواده [٢] . فسرتُ معهم – وأنا على رِقْبةٍ من طمع فيه أو كَيْدٍ له – فبلغوا نهرًا احتاجوا إلى عُبُوره ، فرأيتهم قد خلعوا الخِفاف وحَطُّوا الرحالَ ، وسَلَكوا سلوك المطمئِنّ ، فأنِسْتُ إليهم » .

* * *

قريب لابن يعفر وعجوز يمانية

٤٧ – وكان فى حارتنا شابٌّ قد قدم من العِرَاق ، ذَكىُّ الروح هادِئُ السَّعْى ، يذكر أنه قَرَابةٌ لابن يَعْفُر القائِم كان باليمن ، وكان بمصر فى دون قومه ، فأشار عليه من شاهَدَ ٱبنَ يعفر وسَعَةَ أمره ، بالخروج إليه ، فأخذْتُ له حَجَّةً من بعضِ أهلِنا [٣] ، وأضفت إليها بِرًّا يفى بتحَمُّله [٤] ، وخرج . فلقى بمكة عجوزًا يمانِيَةً جليلةَ القدر فيهم ، فعرَّفها موضعَه ، فقالت : « أنا أتكفّل بمؤُونَتِك وتحمُّلك ، وأغتنم هذه اليد عند الأمِير » ، وحملْته حتى صارت به إلى عشيرتِها ، فقالت لهم : « إن ٱبنَ يعفر قتل مِنّا فى العام الماضى رجلًا ، ومعى قرابةٌ له فاقْتُلوه به » ، وٱجتمع الحىُّ ، وتسلَّمه أولياءُ القتِيل ، فلما جُرِّد السيفُ ٱضطرب وبَكى ، فقال أولياء القتيل : مانرضى أن نقتل هذا بصاحبنا ، صاحبُنا شُجاعٌ وهذا جَبَان ! » .

فبعثوا به إلى ٱبن يعفر ، وقالوا لرسولهم إليه : « إنّا لا نرضى أن نقتادَ من هذا » [٥] ، فلما وافَى ابنَ يعفر ، دعا له بالسيف والنِّطْع ليقتله ، وقال « هَتَكْتَنى فى

---

(١) النشز : المتن المرتفع من الأرض . (ش) .

(٢) السواد : المعسكر . (ش) .

(٣) حجة : يريد نفقة حجة عمن مات قبل أن يحج وقد وجب عليه الحج . (ش) .

(٤) يريد ، مايقوم بنفقة حمولته فى السفر . (ش) .

(٥) اقتاد منه : جعله قودًا أو قصاصا يقتل بالمقتول من قومه . (ش) .

هذا الحيّ من العَرَب ! » ، فقال له وزيره : « إنَّ هذا الفتى خَرَج من فاقةٍ وأمْنٍ إلى موقفٍ تُضرب فيه عُنُقه فاْضطرب ، وإنما يقتل الأمير من قادَ الجيوشَ ، وتطعَّم بحلاوةِ الأمر والنهى فيه [1] ، وتمكَّن من الرئاسة ثم عدل به طبعه إلى الخَور ، والّذى أَراه للأمير : أن يعقِد له الرّئاسة على جَمَاعته ، ويُنْفِذَه إلى مهِمَّاته ، فإنَّ أكثر الفضائِلِ إنما تظهَرُ بحُسْن الارتياض » [2] .

ففعل الملك ما أشار به عليه وزيره ، فحدّثنى أبو عبد الله محمد بن عامر اليمانى : أنه دَرَج بهذا التدبير [3] فظهر من شجاعته مالم يُرَ فى آل يعفر مثْله ، ثم غزا الحيَّ الذى كانت تلك العجوز منهم ، فقتل أولادًا كانوا لها ، وأقْفر به ذلك الحى » .

* * *

الخيزران أم الرشيد وامرأة هشام

٤٨ - وحدثنى يوسف بن إبراهيم [والدى] . قال حدثنى إبراهيم بن المهدى :

« أنه دخل على الخيزُران أمِّ الرشيد ، فوجدها جالسةً فى الدار المعروفة بها - وصارت إلى أم محمد بنت الرشيد بعدها - على نَمَط أرْمِينىٍّ والنَّمط على بساط أَرْمِينىٍّ [4] ، وعن يمين النَّمَط ويَسَارِه نَمَارقُ أرمينيَّة [5] ، وعلى أعلى نُمْرُقَةٍ منها زينبُ بنت سليمان بن على ، وعلى يَسار النَّمارق أمّهات أولادِ المنصور ونسوةٌ من نساء بنى هاشم ، إذ وقفت اْمرأةٌ على طَرَف البساط فسلَّمت ثم قالت : « يازوج أمير المؤمنين ! أنا مُرَيَّةُ زوج هشام بن عبد الملك ، ثم مروان بن محمد من بعده ، نكَبَها الزمن ، وزَلّت بها النعل [6] ، حتى أصارها إلى عارية ماتستتِر به مما

---

(١) تطعم الشئ وتطعم به : ذاقه ليتبين طعمه حلو هو أو مرّ ؟ (ش) .

(٢) الارتياض : الرياضة والتذليل والتعليم ، يقال ، راضه وروّضه وارتاضه . (ش) .

(٣) درج به : درب به وترقى درجة بعد درجة . (ش) .

(٤) النمط : ضرب من البسط (جمع بساط) له خمل رقيق وطئ . (ش) .

(٥) النمارق : جمع نمرقة ، وسادة وثيرة موشاة . (ش) .

(٦) زلت به النعل : زلق ووقع بعد استواء الحال والنعمة . (ش) .

عليها » ، فتبيَّنت الدموعَ تدورَ فى عين الخيزُران . وخافت زينبُ أن تدخلها رقَّةٌ ، فقطعت على مُرَيَّة الكلام بأن قالت : « يا أمَّ أمير المؤمنين ! اتّقِى الله أن تُدخلك رأفةٌ بهذه الملعونة ، فتتبوَّئى مَقْعَدَك من النار » .

ثم التفتت إلى مُريّة فقالت لها : « بِكِ فَدَام ما أنت فيه يا مُرَيَّة ! كأنّك نسيتِ دخولى عليك بحرّان ، وأنت جالسة بصحنِ دار مروان ، على هذا النَّمط ، وتحته هذا البساط ، وعن يمينِ نمطك ويساره هذه النمارق ، وعليها أمّهات أولادِ جَبَابرتكم ، وقد مَثَلْتُ فى مثل هذا المكان الذى أنتِ فيه ماثلة [١] ، وأنا أسألك وأتضرَّعُ إليك فى استيهاب جُثّة إبراهيمَ الإمامِ من مروان لئلّا يُمثِّل به ، وقولَك وأنت كالحةٌ فى وجهى : « ما للنساء والدخولَ فى أمور الرجالِ ؟ » ، ثم أمرتِ بإخراجى من دارك بغِلْظَةٍ ، فلجأت إلى مروانَ فوجدتُه على حالٍ أَشَدَّ تعطُّفًا على رحمِهِ منك ، وقال لى : « لقد ساءتْنى وفاةُ ابن عمى وما دَبَّرتُ المُثْلَةَ [به] [٢] » . وقد خَيَّرنى بين إطلاقى تجهيزه له ، وبين تسليمه إلىّ ، فاخترتُ تسليمه ، وأمر له بجهازٍ فقبلته منه » .

« قال إبراهيم : « فالتفتت مُرَيَّةُ إلى زينب فقالت لها : « كأنك يابنت سليمان حَمِدْتِ لى عاقبة أمرى فى قطيعتى رحمى ، فأردت أن تزيِّنى قطيعة الرحم لأمّ أمير المؤمنين ! » ، ثم التفتت إلى الخيزُرَان فقالت : « صدقت زينبُ فيما ذكرتْ عنِّى ، وذلك الفعلُ منى أحلَّنى هذا المحلَّ . والسعيدُ من اتعظ بغيره » ، وانصرفت . فبعثتْ إليها الخيزران ما أعاد إليها [حالها] ، وكفَّ اختلالها .

* * *

٤٩ – وحدثنى يوسف بن إبراهيم والدى ، أنه سمع بُطْرُسَ [٣] – رَجُلًا – يحدِّث إبراهيم بن المهدى :

---

(١) مثل بين يديه مثولا : انتصب قائما . (ش) .

(٢) المثلة : التنكيل بالميت أو الحى والتشويه . مثل به تمثيلا . (ش) .

(٣) فى هامش ش : « فى الأصل بطوس » وسيأتى اسمه فى هذه القصة . وفى متن ج « أنه سمع بِطُوسٍ رجلا » وبهامشها « رجلا : سيأتى فى هذه القصة أن اسم هذا الرجل بطرس » .

أن « نِقْفُورَ [١] الملكَ » – لما تأدَّى إليه الخبرُ بوفاةِ الرَّشيد – جَعَل ذلك اليوم عيدًا للروم ، ثم جعل عيدًا أعظمَ منه فى اليوم الذى تأدَّى إليه وقوع الشرّ بين محمَّدٍ الأمين [٢] والمأمون ، ثم عَيَّدَ عيدًا ثالثا فى الوقتِ الذى بلغه خروجُ أبى السَّرايا [٣] ، ثم خرج إلى البُرْجان [٤] ليحاربهم فقُتل .

فسأل بطارقةُ الروم بطريقَهم اختيَارَ رجلٍ ليُقَلَّد مملكَتَهم ، فاتَّفَقَ معهم على رجلٍ من أبناءِ العرب يقال له « اليون » فملَّكوه – وكان ذا نِكاية – فدفع عنهم وَقْدَة البُرْجان [٥] . وقَوِى اليون على ضبط المملكة ، وكانت الروم فى أيامه أعَزَّ منها فى أيام نقفور ، إلا أنهم أنكروا عليه بَسْطَ اليد بالهِبَاتِ ، والعفوَ عن أَسْرَى المسلمين . ثم اجتمعت البطارقةُ الاثْنَا عَشَر فى مجلسٍ على نبيذٍ لهم ، فتذاكروا أمرَه ، واستشنعوا فعلَه ، وكان أغلَظَهم كَدْحا عليه [٦] ميخائيلُ البطريق الذى مَلَكَهم ، ومَلَكتهم امرأةٌ بعده ، فبلغ اجتماعُهم وما قالوا اليونَ ، فوجّه فى يوم سبتٍ إلى ميخائيل فأحضره ، ثم دعا بتِلِّيسٍ من شعرٍ بطول ميخائيل [٧] ، فأدخل رجلاه فى قرارةِ التلّيس ، ثم أمر بالتِّلّيس فرُفع وأقيمَ ميخائيل ، فبلغ رأسُ التليس إلى رأسه . ثم أمر أن يُحْشَى رملًا فُحشِى ، فبلغ الرمل فَمَ التليس ثم أمر فَخِيط

---

(١) كان أبى أن يدفع الخراج إلى الرشيد فحاربه الرشيد وخرّب بلاده ثم صالحه على خراج يحمله إليه فى كل سنة ، ومات نقفور سنة ١٩٣ بعد أن حكم سبع سنين .

(٢) هو محمد الأمين الخليفة العباسى ، بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه ، ثم أعلن خلع أخيه المأمون من ولاية العهد ووقعت بينهما حروب بسبب ذلك انتهت بتغلب المأمون وقتل الأمين سنة ١٩٨ هـ . السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٤٥

(٣) هو السرى بن منصور ، اشترك فى الفتنة التى حدثت بين الأمين والمأمون ، ثم خرج على المأمون . قتل فى عهده سنة ٢٠٠ هـ . ابن قتيبة : المعارف ص ٣٨٨ . وبحواشي ج : « هذا ، وفيما يذكره المؤلف خطأ تاريخىّ لأن نقفور مات فى السنة التى مات فيها الرشيد ، فلم يكن حيا حينما وقع الشرّين الأمين والمأمون سنة ١٩٥ ، ولم يكن حيّا حينما خرج أبو السرايا على الدولة العباسية سنة ١٩٩» .

(٤) البرجان : صنف من الروم .

(٥) الوقدة : الشدة والبأس والالتهاب فى الحرب وماشاكلها . (ش) .

(٦) الكدح : السعى الحديد ، ويريد السعى فى إيذائه والإيقاع به . (ش) .

(٧) التليس : وعاء كالعيبة يسوّى من الخوص . (ش) .

بشَعَر جُمَّة ميخائيل (١) ، ودعا الطَّبّاخين فأمرَهم أن يُعِدُّوا له طعامًا كثيرًا مثلَ ما يُعَدّ فى الأعياد ، ثم قال للبطارقة – وميخائيل بين يديه على تلك الحال –: « إذا نحن تَقَرَّبنا فى غدٍ ، ألقيتُ ميخائيل فى البحر ، ثم تغدَّينا وجعلناهُ يومَ سرور ! » .

قال بطرس : « فٱجتمع البطارقةُ بعد ٱنصرافهم من عنده وقالوا : « هذا العربيُّ قد امتدَّت يدُه إلى ميخائيل ، ونخاف أن يجترئَ على كافَّتِنا » ، فأجمعوا على الاشتمالِ على سيوفِهم ، والدخولِ إليه وقتلِه ، ففعلوا ذلك . ثم جلسوا للمشاورةِ فيمن يُنْصَب بمكانه (٢) ، وٱستشرف كل واحد منهم إلى أن يكون مَلِكا ، فقال أحدهم لسائر الجماعة : « الصوابُ أن تُمَلِّكوا ميخائيلَ ؛ فإنه يرى أنكم أنعمتُم عليه بالحياة » . فٱستشرَفوا إلى ذلك ؛ ورأوا موضع السَّدَاد منه ، فأخرجُوه من التلّيس وغسلوه ، وأحضَرُوا البطريقَ وثيابَ الملكِ فألبسُوه إياها ، وأعلموه أنّ اليون قد قُتل ، وملَّكوه عليهم .

« ثم صاروا إلى مجلس المملكة والموائدُ منصوبةٌ ، فقالوا له : « تَغَدَّ أيها الملك بالطعام الذى دبَّر اليونُ أنْ يأكله بعد قتلك ! » ، فقال ميخائيل « عارٌ بالملك أن يَطْعَم طعامًا وفى عُنُقه يدٌ لإنسانٍ من أوليائه ورعيَّته ، قبلَ أن يكافِئَه عنها ، وقد أحييتمونى بعد موتى ، ولست أطْعَم طعامًا حتى يخبِّرنى كل إنسان منكم بجميع حوائجه فى مُدَّة عمره » . فقال كل واحد منهم ماتناهى إليه أمله ، مما يصل ميخائيل الملك إليه . فقضَى جميع حوائجهم ، وسألوه الأكلَ فقال : « قد فرغْنَا مما يجب لكم ، وبَقِى [ما] لله وللملك اليون ، ولا يُحْسُن بى أن آكلَ حتى أَفعل مايجب لهما » ، ثم قال للبطريق : « ماجزاء من منع مَلِكا عليه من شمِّ النسيمِ ورَوْحِ الحياةِ ؟ » ، قال البطريق : يُمْنَع النسيمَ ورَوْحَ الحياة » (٣) ، فقال لهم : « قد حكَم عليكم البطريق بما لا يَجُوز خِلافُه ! » . وأمر بضرْب أعناقهم وٱبتدأ بطعامه .

* * *

(١) الجمة : مجتمع شعر الرأس إذا طال (ش) .

(٣) نصب مكانه : أقيم مكانه خليفة له . (ش) .

(٣) روح الحياة : برد نسيمها وطيبه وخفته . (ش) .

بن ذى يزن
لك الحبشة

٥٠ – ومما نقله ابنُ المقفع عن الفُرسِ وتَعَالَمَهُ العرب :

أن ملك الحبَشة لما غلبَ على مملكةِ سيف بن ذى يَزَن ، خرج إلى كسرى مُستصرِخًا إليه ، ومستجيرًا به عليه . وكان ملك الحبشةِ يُجرى على تَرْجُمان كسرى رزقًا مُثيبًا على تحريف دَعْوى المتظلّمين منه (١) . وكان لكسرى يومٌ فى كل شهر يركب فيه ، ويقرُب من عامّته ، ومن لا يصل إليه ممن أنتَجَعه (٢) ، فتوَخّى سيف بن ذى يَزَن ركوبَه فى ذلك اليوم ، فلما رآه قال : « أسعَد الله الملكَ ! أنا سيف بن ذى يَزَن ، أَغـار علىّ متملِّك الحبشة بفَرْط تعَدّيه وسوء جِـوَاره ، فأخرجنى من مملكة عَمَرتُها أنا وآبائى مُذْ أكثر من مائتى سنة . وأنا أسأل الملكَ أن يُنْجِدنى عليه (٣) ، ويردّنى بطَوْله إلى مملكتى ومملكة آبائى » . فسأل الترجمانَ عن قوله فقال : « يقول : « أنا رجل من جلّة العرب (٤) ، وقد اختلّت حالى ، واضطرب شمْلى لشدّة الفاقة ، وقد قصدتُ الملك مُسْتَتِرًا به ، ومستميرًا منه » (٥) ، فأمر له بجائزة . فرأى سيف بن ذى يزن مالا يشبه ما ابتدأه به .

وصبر إلى اليوم الذى يسهُل فيه كلامه وانتَظَره فيه ، فلما رآه قال : « أنا أَيَّد الله الملِكَ ذو نعمةٍ وكفايةٍ ، وإنما وَفَدْت على الملك لأقتَبِس من عزّه ، وأنتصر بقُوَّته » ، فسأل الترجمان عما قال ، فقال : « يقول أمَرْت بما يقْصر عن حاجتى » ، فأمر له بجائزةٍ أخرى . فوقف على تحريف الترجمان لكلامه .

فانتظره فى اليوم الثالث ، فلما رآه قال : أيد الله الملك ، إنَّ الغادِرَ » ... فأدَّى إليه هذا الحرفَ ، فقال : « الخائنَ » ... فرأى فى وجه الملك الاستفهام ، فقال : « الكذاب » ... فأشار إليه الملك بيده من هو ؟ فأوْمَى إلى الترجُمان ، فأحضر

---

(١) الرزق المثيب : المصلح للحال بعظيم غنائه . (ش) .

(٢) انتجعه : أتاه يطلب معروفه وخيره . (ش) .

(٣) أنجده على فلان : أغاثه وأعانه عليه . (ش) .

(٤) الجلة : جمع جليل ، وهو الكبير العظيم . (ش) .

(٥) استمار فهو مستمير : طلب الميرة . وهى الطعام والرزق وما إليهما . (ش) .

الملك ترجمانا آخر ، فقصَّ عليه قصَّته ، فضرب عنق الترجمان ، وأحْسَنَ تَلَقِّىَ سيف بن ذى يزن لما تبيّن منه فى التأتِّى لإفهامه [١] .

ثم أحضره مجلسه فسأله عن مقدارِ حاجته ، وما الذى يُؤْثِرُه من أصناف الناس ؟ فقال له : « أسأل الملك أن يُطْلِق لى من محابِسه الكهولَ ، فإنهم أصبرُ فى المعارك ، وأسمحُ بالنفوس ، فأطلق له جملة من [فى] الحبس كهولًا بأسْرهم ، فحملهم فى مَرَاكب ، وركب معهم حتى وَافَى مملكته .

فلما نَزَل جميعُهم ، أحرق المراكب ، واعتمد ذلك سرًا منهم . فلما نظروا إلى المراكب قد أحرقت ، قال للرجال : « إنه لا يحسن بكم التَّعذيرُ فى القتال فتهلِكُوا [٢] ، ولكن جِدُّوا جِدّ من لانَجَاة له فى البحر » . فجرّد الجيشُ العِنَاية ، وصَدَقوا حتى بَرَزُوا على من أقامَ بمملكته [٣] ، واحتازُوا له طائفةً كبيرةً من أرض الحبشة ، وقهر مَلكها واتَّقى جانِبَه .

* * *

أبو الوزير وجه من العمال

٥١ - وحدثنى هارون بن ملُّول ، قال :

« تقلّد أبو الوزير - خالُ أبى أيُّوب - الخراجَ على حالِ ٱضطرابٍ من الأولياء ، واستعمل - من فَرْط الاستقصاء على أرباب الخراجات ، وإخراج البُقُوط [٤] عليهم - ماثقُلت به وطأتُه على الناس . وكان له كاتب ذهب عنّى اسمُه ، فى النهاية من الجَزالة والضَّبْط [٥] ، وكان يُعزَى إليه أكثر صنيع أبى الوزير ، فقال لى هارون : « فقصده جماعةٌ من الأولياء ، فأحسَّ بالشرّ فيهم ، فأغلق الباب عنهم ، ثم تأمّلهم حتى عرفَهم ، فكتب بفَحْمةٍ : « ياسيدى قتلنى فلان وفلان » ، وسمَّى جماعةَ رؤسائهم ، وكَسَروا الباب ودخلوا إليه فقَتَلوه .

---

(١) تأتى للشئ : ترفق فى إتيانه وإدراكه . (ش) .

(٢) عذر فى الأمر تعذيرا : قصر بعد جهد يبلغه العذر فى الإخفاق . (ش) .

(٣) برز عليه : فاق عليه وغلبه . (ش) .

(٤) البقوط : جمع بقط ، وهو ثلث خراج الأرض والبساتين أو ربعه يلتزمه المعامل . (ش) .

(٥) الجزالة : جودة الرأى وأصالته . (ش) .

وركب أبو الوزير حتى شاهده ، ثم تأمل حائطَ مجلسه ، فوجَدَ الكتاب بالفحمة ، فقبض عليهم فصدَقوا عنه وقُتِلوا به » .

* * *

ابن الأبرد وكاتبه

٥٢ - وكان لرجل من جِلَّة كتّاب الجيش بمصر - يعرف بابن الأبرد - رغبةٌ فى وصفِه بالنُّصح فى أعمال السلطان ، ولابسه محمد بن أَبَّا [القائد] ، فقدَّم العنايةَ به والتعصُّب له ، ومكّن له عند خُمارَوَيْه محلا ردَّ إليه بعضَ أعماله من الخراج ، واْحتاج فيه إلى كاتب يحملُ عنه ، فاْرتاد رجلا يعرف بنَصْر بن القاسم [1] - يَخْلُف [ابن] الأبرد فيما أُسْنِد إليه -، فكان يسعى به إلى كاتب خمارويه . فكتب يوما رُقْعة تشتمل على ماكرهه ابن الأبرد من التَّغْميز به والانتقاص له [2] ، ويشيرُ فيها بأشياء تُفْسد محله ، وبعث بها إلى كاتب خمارويه ، فغلط الغلام وجاء به إلى ابن الأبرد ، فاستعرض فيها أشياء قبيحة ، وفارَقَ الكاتب . ورأى الكاتبُ أنه قد أحرز - بما أتاه من السعاية - مكانةً عند كاتب خمارويه . وقُتِل خمارويه ، وثبتت يد كاتبه على الأمر ، فرامَ نصر بن القاسم أن يدخُلَ فى جملته ، فامتنع من ذلك وقال : « من سعى إلينا سَعَى بِنا » ، فمات نصر بن القاسم كمدًا .

* * *

عمرو بن العاص وتنكره

٥٣ - وسمعت سعيد بن عبد الله بن الحكم يقول :

« وُجد فى أخبار مصر المسندة أنَّ عمرو بن العاص عند تغلُّبه على مصر كان يَتَنكّر ويخرج وحده ، متشبها بالرجل من عامَّته ، ليرى ماعليه القِبْطُ من النيَّة للمسلمين . فتمادَى به السيرُ راجلا حتى لحق بطرَفٍ من الفُسْطاط ، فرأى جماعةً قد التأَمت على سوءٍ فيه [3] ، فقال لها : « اعملوا بى كُلّ ماتُؤْثرون من السوءِ

---

(١) ارتاد الشئ : طلبه متخيرًا . (ش) .

(٢) التغميز : الطعن على الرجل وإظهار غميزته ، أى عيبه . (ش) .

(٣) التأم القوم على الشئ : اجتمعوا عليه . (ش) .

ولا تردُّونى إلى يد الأمير ، فإني هربت منه » ، فقال بعضهم : « رُدّوه إلى يد الأمير فإنه يقتله ، ويكون لكم بذلك عارفةٌ عند الأمير » . فساقوه إلى دار [الإمارة] ، فأخذَ يَتَضوَّر ويتأبّى فى سِيَاقته حتى قرُب من الدار [١] ، فقام إليه الشُّرَط . فقال : « لا يفوتَنَّكم منهم أحَدٌ ! » ، فجُمعوا له ، فأتى على آخرهم ، ولم يعاوِد التنكُّر » .

* * *

الدفانى والخناق

٥٤ - وكنت أعرف شيخًا فى أيام خمارويه ، حُلْوَ النادرة ، مليحَ الألفاظ ، يُعرَف بالدفَّانى ، وكان معاشُه من التوصُّل بكتب الولاة إلى مُعامِليهم . فحدثنى أنَّه خرج بكُتُبٍ إلى الشَّرقية ، فٱلتقَى مع رجل فى زِيّ بعض المانيّة من الأطباء : [٢] « وهو على حمارٍ بخُرجين ، وكنتُ على حمار . فاستخبرنى عن صِناعتى ، فتحسَّنت عنده بأن قلت : « أنا تاجر فى الغلّات » ، فطمع فىَّ ، وكان مُبَنِّجًا ، [٣] فقال لى : « هذا موضعٌ طيِّبٌ ، فلو أكلنا فيه ! » ، فقلت : « ذاك إليك ! » ، فأخرج من أحد خُرْجيه رغيفين مَشْطُورين [٤] ، فوضع أحدَهما بين يدىّ والآخرَ بين يديه . ثم أَخذَ كوزًا معه ومضى يسعَى به ، فشرِهَتْ نفسى إلى الرغيف الذى كان بين يديه ، فأبدلته حتى صار بين يدىَّ وصار رغيفى بين يديه ، وجاء بالماء ، وابتدأنا بالأكل ، فما ابتلع لقمةً حتى شَخَص بصرُه وتمدَّد [٥] ، واجتاز بنا جماعة فقالوا : « ما لصاحبك ؟ » ، قلت : « لا أدرى والله ! » ، فقالوا لى : « أَنت مبنِّجٌ بنَّجت هذا المسكين ! » ، وساقونى .

فكان من لُطْف الله أَنَّ خليفة لموسى بن طُونِيق [٦] كان ببلدهم ويُجاورنى يتقلَّد المعونة ، فساقنى القوم إليه ، والرجلُ محمول معنا ، وهم يقودون

---

(١) تضوّر : تلوّى واضطرب وصاح من خوف أو وجع أو جوع . (ش) .

(٢) المانية : هم المانوية الزنادقة أصحاب مانى . (ش) .

(٣) البنج : نبات ينتبذ ، إذا استعمل خدّر وفتر وأرقد . وبنجه : سقاه منه (ش) .

(٤) المشطور : المقطوع شطرين ، والشطير : نصف الرغيف والجمع شطائر . (ش) .

(٥) شخص بصر الميت : إذا ارتفعت أجفانه إلى فوق وجعل لا يطرف . (ش)

(٦) انظر فى موسى بن طونيق : الكندى : الولاة ص ٢٣٩

الحِمَارَيْن ، وقالوا له : « هذا مُبَنَّج وجدناه ! » . فلما رآنى ضحك إلىّ وقال : « متى تعلمت التبنيج ؟ » ، قلت : « اليوم » ، وقصصت عليه خَبَرى ، وأخرجت كتابَ موسى بن طُونيق فى بِرّى . ففتش خُرْجَه ، فوَجَد فيه شطائرَ تبنيج وشطائرَ خاليةً ، ووجد معها أوتارًا للخنق ، وأحجارًا للشَّدْخ . فشدخَ رأْسه بها ، وخَنَقه بتلك الأوتار حتى فاظ » [١] .

* * *

خاتمة المؤلف للباب الثانى

وإذْ وَفَّيْنا ماوعدناك به – من أخبار المكافأة على الحسن والقبيح – مارجونَا أن يكونَ ذلك عَوْنًا للاستكثار من مُوَاصلة الخير ، وتطلُّب العارفة فى الحَسَن ، وزَجْرِ النفس عن متابعة الشرِّ ، وإبعادها عن سَوْرَة الانتقام فى القبيح [٢] ، وقد قالوا : الخير بالخير والبادى أخْيَر ، والشر بالشَّر والبادى أظلم ... ، رأيتُ أنْ أصِلَ ذلك – حفظكَ الله – بطرَفٍ من أخبارِ من ابتُلِى فصَبَرَ ، فكان ثَمرةُ صبره حُسْنَ العُقْبَى ؛ لأنّ النفس إذا لم تُعْنَ عند الشدائد بما يجدِّد قُوَاها ، تولَّى عليها اليأس فأَهْلكها .

وقد علم الإنسان أن سفورَ الحالة عن ضدِّها حَتْمٌ لابدَّ منه ، كما علم أنّ انجِلاء الليلِ يُسْفِر عن النهار . ولكنَّ خورَ الطبيعة أشدُّ مايلازم النفس عند نزولِ الكوارث ، فإذا لم تعالج بالدَّواءِ ، اشتدَّت العلة وازدَادت المِحْنة . والتفكُّر فى أخبار هذا الباب ، مما يشجّع النفسَ ، ويبعثُها على ملازمة الصبرِ وحسن الأدب مع الرَبِّ عز وجل ، بحسن الظَنِّ فى مُوَاتَاة الإحسانِ عند نهاية الامتحان . والله ولىُّ التوفيق .

* * *

---

(١) شدخ رأسه : كسرها ، وفاظ الرجل : خرجت روحه فمات . (ش) .

(٢) سورة الانتقام : حدّته وشدّته (ج) .

٣ – حسن العقبى

ابنا الاخبار
وغلام يتشـ

٥٥ – [ومما سمعتُه أن ابنَىْ عُمَر الأخبارى لمامات أبوهما ، وكان من رجال دولة المتوكل ، هم المتوكل بمصادرة أمواله . فعزما أن يجعلاها وديعة عند شيخ كانايريان فيه الصلاح وحسن المذهب ، فكانا يبعثان إليه] [١] .

بالشيء بعد الشيء مما تخلّف عن تلك الوديعة ، وعجوزٌ تختلف بذلك ، لها ولدٌ يتشطَّر ويلعَبُ بالحمام [٢] ، فورَدت عليهما بَدْرَةُ دراهم [٣] ، وقد انتهى بهما السعى فى الإيداع . فقالا للعجوز : « صيرِى بها إلى ابنِك مع هذا الغلام حتى تُودِعِيها لنا عنده » ، فمضت بها والغلام معها ، فحدَّثنا الغُلام قال :

« صرنا إليه وقد فَتَحَ باب البُرْجِ وأخرجَ فِراخًا زُغْبًا [٤] ، وهو ينظر إليها ، فأدَّينا الرسالةَ إليه ، فقال : « ليس لى خزانةٌ ولا صندوق ، ولكن اجعلها فى هذه المِحْضَنة الخالية من البُرْج [٥] » ، قال : « ففعلتُ » .

« وانصرفنا جميعًا على أنه يُمَزِّقها مع الغِلْمان وسُبّاق الحمام [٦] .

ثم صَلَح ماكان الْتاثَ من أمرِنا [٧] ، واطمأنت نفوسُنا مما كان أخافنا ، فبعثنا فيما كُنَّا أودعناه الشيخ ، فقال للغلام : « غَلِطْتَ بى ، وليست الرسالةُ إلىَّ » ، فلما رجع بالجواب إلينا ، تحيَّرنا وركبنا إليه ، فاستمرّ فى الجحود ، وتضاحكَ مما

---

(١) فى هامش ج : « أضفنا العبارة التى بين قوسين ليتسق نظام الحكاية . وقد كان فى موضعها بياض بالأصل » .

(٢) شطر شطارة وتشطر : خرج عن أهله وتركهم وأعياهم خبثًا . وهو الشاطر وهو صاحب الفتوّة والمروءة والقوّة . (ش) .

(٣) البدرة : كيس يكون فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار والجمع : بدور وبدرات . (ش) .

(٤) زغب : جمع أزغب ، وهو فرخ الطائر يكون عليه الزغب ، وهو أول مايبدو من دقاق ريشه . (ش) .

(٥) المحضنة : الموضع الذى يحضن فيه الحمام على بيضته . (ش) .

(٦) السباق : هم الذين يتراهنون على سباق الحمام . (ش) .

(٧) التاث الأمر : اختلط والتف وفسد . (ش) .

لقيناه به ، ورجعنا وقد لحقَنا من فَقْدِ الوديعة أكثَرُ مما كنا نخافُه من النّكْبَة . ومَيَّلنا بين مُطالبته بما نُنبِّه به على مقدار ما أودعناه [١] ، ونُطمِع مَنْ خفناه ، وبين الإمساك عنه ، وتربُّص الأيام به ، فمالت نُفوسنا إلى الإمساك لمّا اجتمعت لنا الصغائر المُغادرة للعدل [٢] . واجتازت بنا العَجُوز فقالت : « قد رددنا ما أوْدعْناهُ وبقى ابنى » . واقتضتنا الغلامَ يحمل البدرة فبعثنا به معها .

فحدّثنا الغلام قال : « وافيناه بين يَدى البُرْج ، فأدَّت العجوز إليه الرسالة ، فقال للغلام : « ادخل فخُذْها من المِحْضَنَة التى خلَّفتها فيها » ، فصار بها إلينا الغلامُ وعليها ذَرْق الحمَام [٣] ، فوزنّاها فوجدناها على ماكانت عليه . فكثُر تعجُّبنا من أمانته ؛ وأخرجنا من البدرة ألفَ درهم ، وتقدَّمنا إلى الغلام بالمصير بها إليه . فرجع الغلام إلينا فقال : « رمى بها إلىَّ وَشَتَمنى » ، فآثرنا ارتباطَه [٤] ، وقلنا للعجوز : « صيرى به إلينا السَّاعة ! » ، فوافانا ، فقلنا : « انبسطنا إليك فانقبضت عنا ! » ، فقال : « الخيانةُ - أعزَّكم الله - أسهلُ من أخْذِ أجرةٍ على الأمانة » ، فقلنا : « جزاك الله خيرا ، فقد وجدنا فيك مالم نجده فى غيرك » ، فقال : « وتخلَّف عنكم شىء ممَّا أودعتموه » ، فقلنا : « نعم ! » ، فقال : « عرِّفونى ، فإنى أرجو أن آخذَه لكم بألطفِ حيلةٍ » ، فرأيناه - لما فيه من فَضْل النفس وكَرَم السجيَّة - أهْلا لأن نَبُثَّه وَجْدَنا [٥] ، فأخبرناه ؛ فقال : « ينبغى أن تتقدّما إلى بعض من تثقان به من غلمانكما ، أن يتيقَّظ ؛ فلعلِّى أن أناديَه الليلة » ؛ فقلنا : « وما تريد بذلك ؟ » ، فقال : « مالا يجوز أن أُبديه ، وأرجو عون الله عليه ، والتفريج عنكما به » ففعلنا ذلك ، وما يتطاول سؤلنا إلى ما أتاه [٦] .

---

(١) ميّل بين الأمرين . ومايل بينهما : فاضل ووازن . (ش) .

(٢) هكذا فى الأصل . (ش) وفى متن ج : « الضمائر المغادرة » وبهامشها : « لما اجتمعت لنا الضمائر إلخ : يقول آثرنا الإمساك عن الشكوى حينما اجتمعت لمناوأتنا النفوس التى نبذت العدل والإنصاف . وفى الأصل : الصغائر وقد رجحنا أن تكون الضمائر .

(٣) ذرق الطائر : سلحه وخرؤه . (ش) .

(٤) ارتبطه : أوثق صلته به . (ش) .

(٥) بثه وجده : أطلعه على مايكتم من الأسف والحزن . (ش) .

(٦) السؤل : البغية : (ش) .

فجمع إخوانا له فى عدّة كثيرة من الشُّطَّار (١) ، واقتحم على المستودَع وقال له : « ماجئْنا لنَهْبكِ ، ولا نتعرَّضُ لشيءٍ من مالك ، وماجئنَا إلّا لو ديعةِ ٱبنى عُمَر الأخبارى . فإن أدَّيْتَها خرجنا وكأنّا مادخلنا . وإن جَحَدْت واعتمدت بصياحٍ قتلناكَ الساعةَ ، وسهُل علينا عقوبتُنا فيك وقَتْلُنا بك ، لأنّا نُرْزَق الشهادة فى القتلِ والمَثوبةَ ، إذ كنا نجاهد عمّا اختزلته (٢) » ، وضرب إلى لحِيْتَه وأعْجَله (٣) ، فقال : « هى فى هذه الخزانة » . ودعا بغلام فقال : « أخرِجْ جميع ما [أَوْدَعَنَاه ٱبنا] عُمَر » ، فأخرج سَفَطًا كان فيه جواهر ، وسَفَطًا (٤) فيه أثوابُ وشْى مذهَّبة صِحَاحًا ، وبُدُورا فيها مال (٥) ، فقال : « والله لئن خَلَّفْتَ شيئا لنَطُلَّنَّ دمك (٦) ، ولئن كنت أدَّيت الأمانة لنكوننَّ أولياءَك والمقيمين بأمرك » .

فوافوْا باب منازِلنا ، فصاحوا بالغلام وهم يحملون الوديعة ، فوضعوها بين أيدينا وحدّثونا بحديثهم ، وقالوا : « استعرِضُوا وديعتكم ، فنحن فى الدهليز حتى تَفْرُغا وتُخْبِرَانا : هل بقى منها شئ أم لا ؟ » ، فلما عرضْناها على ثَبَتِها عندنا (٧) ، ماغادرتْ شيئًا منهُ ، وعادت بما ردّ إلينا نعمتُنا ، وٱنحسمت فاقتُنَا ، ولم نجد فى الجماعة من قبل شيئا مما بذلناه ، وانصرفوا » .

* * *

رجل مختل ا... وعباس البرمَ...

٥٦ - وحدثنى أحمد بن أيمن قال :

« كنت أكتب فى حداثتى للعباس بن خالد البَرْمَكىّ ، وكان طويلَ اللسان مَخِشىّ الغَضَب . فإنى لجالس بين يديه فى داره بمدينة السلام ، حتى دَخَل علينا

---

(١) الشطار جمع شاطر . (ش) .

(٢) اختزل المال : اقتطعه وانفرد به . (ش) .

(٣) ضرب إلى لحيته : أى ضربها بيده فأمسكها . (ش) .

(٤) السفط : الوعاء الذى تعبى فيه الثياب . (ش) .

(٥) البدور : جمع بدرة . (ش) .

(٦) طل دمه : أهدر وأبطل ديته . (ش) .

(٧) الثبت : جريدة تثبت فيها الأشياء - (الكشف) ، (ش) .

شابٌّ حسنُ الصورة رث الهيئة ، فأكب عليه فقال : « ألست ابن فلان صديقِنا ؟ » ، فقال : « نعم ، ياسيدى ! » . فقال : « قد كان حَسَن الظاهر جميل الهيئة ؛ فما بلَغ بك إِلى ما أرى ؟ » ، قال : « كان تجمُّله أوْفَى من عائِدته ! وتُوُفّى ، فكنتُ أتبلَّغ بما يستعمله المُوفى [١] على جَاهِه ، إلى أن خانَ طبعى البارحة ولم أُطِق سَتْرَ مابى فقصدتُك » ، فدعا بمائة درهم ، وقال : « تمسك بهذه إلى أن أنظر لك فى عائدٍ عليك من الشُّغْل » . فلما قام من عنده قال لغلام يثق به : « قُصَّ أثَرَ هذا الفتَى ؛ فانظر مايبْتاعُه بهذه الدراهم وأحْصِه عليه حتى يدْخُل منزله ، واْعرف المنزل وصِرْ إِلىّ » . فرجَعَ إليه وقال : « ياسيدى ! هذا غلام عَيَّار ! [٢] ابتاع بنَيْفٍ وثلاثين درهما سَمِيذًا وسُكَّرًا وعَسَلا ولحمًا كثيرا وحوائجَ الأعراس [٣] ، وأخذ طبّاخًا من طبّاخى الأعراس ، وأحْسِب أنّ عنده دعوة وقد عرفتُ منزلَه » ، فقال : « دَعْهُ » .

فلم تمض إلّا أيام يسيرةٌ حتى وافَى فأعرض عنه ، واْستثقل جلوسَه بين يديه ؛ فقال : « ياعمّي وسيّدى ! ليس يشبه هذا اللقاءُ مالقيتنى به فى الأولى ! » ، قال : « كنتُ فى الأُولى راجيا لصلاحك ، وأنا اليوم آيسٌ منه » ، فقال : « وكيف ظننتَ ذلك ؟ » ، قال : « أخبرنى غلامى أنَّك أَنفقتَ إلى أن بلغت منزلك نَيِّفًا وثلاثين درهما ، وكان حقُّك أن لَا تزيد على ثلاثة دراهم » ، فقال : « لو عرفت خَبَرى لقدَّمت عُذرى ! » ، قال : « ماخبرك ؟ » .

قال : « كنت مع تضايُقِ حالى ، أُمْسِك نفسى عن المسألة ، وأقْتِصُر وأهلى على البُلغة [٤] . وأنا ساكنٌ وأهلى فى ظهر دار فلان – ووصف رجلا ظاهرَ اليَسار من التّجار – وقال : ، « له طاقاتٌ فى مطبخه تُفِضى إلى منزلى . فأولم وليمةً لاأشك فى حضورِك إياها . فَشِرقَ منزلى بروائح الأطعمة ، وكانت الصَّبِيَّةُ من

---

(١) كذا فى ع ، ج وبهامش ج « أتبلغ بما يستعمله إلخ : اكتفى من القوت بما يصل إليه المشرف على نهاية جاهه . وفى متن ش « المُوقِّى » .

(٢) العيار : أصله الكثير المجئ والذهاب الذكى الطواف ، وهو هنا (البلطجى) . (ش) .

(٣) السميذ : دقيق تتخذ منه الحلوى . (ش) .

(٤) البلغة : كل مايكتفى به . (ش) .

صبيانى تخرجُ فتقول : « رائحة جَدى يُشْوَى ! » وأخرى تقول : « رائحة نَقَانق تُقْلى ! » وهذه تقول : « يا أَبَهْ ! أشتَهى من هذا الفالوذج الذى قد شاعتْ رائحتُه لقمةً ! » ، وقولهم يُقَرِّح قلبى (١) . وأمَّلت أن يدعوَنى فأتحمَّل التزليل لَهُم (٢) ، فوالله مارآنى أهلا لذلك ، فقلت : « ولعلّه إذ نَقَصْتُ عنده من منزلةِ من يُدْعَـوْنَ أن يبعث إلىَّ ؟ فوالله مافعل . فبِتُّ بليلة لا يبيتُ بها الملدوغُ ، فأصبحتُ فى الغداة فكنتَ أوثَق فى نفسي مِن سائر مَنْ بمدينة السلام . فلما أعطيتنى تلك الدراهم اشتريتُ بها حوائج أُصْلِحِ منها ماآشتهوه ، فأكلوا أيَّاما منه ، وهم يدعون الله فى الإحسان إليك ، والخَلَفِ عليك » فقال له العباس : « أحسنتَ ! بارك الله عليك ! » ، ثم صاح : « ياغلمان ! أسِرجُوا لى » ، ولبِس ثيابَه ، وركب وركبتُ معه ، ودخل إلى صاحب الصَّنِيع (٣) فقال : « دعوتَنى وجماعةَ وُجُوه بغداذ إلى طعام مَقَتنا الله عليه ! وعرّضت نعمتَنا للزوال ، وأنفسنا إلى اخترام الأعمار ! » ، وقصَّ قصّةَ الفتى ، وقال : « عزمتُ على أن أُصدِّق عن كلّ من حَضَر وليمتك (٤) ، وتكونُ سببًا لتخلّف الناس عنك ، والإمساك عن إجابتك أخرَى الليالى » ، فقال : « أنا أفتدى إذاعتك بما غفلتُ عنه بخمس مائة دينار » ، قال : « أحْضِرْها » . فأحضرها ، فقال : « اقبْضها » ، فقبضْتُها .

ثم ركب إلى جماعةٍ فقال : « أعطونى فى مَعُونة رجلٍ من أَبناء النّعَم ٱختَلَّتْ حالُه » ، فأخذ منهم خمس مائة دينار أخرى ، ورَجع إلى منزله – وقد كان أَمَر الفتى ألَّا يبرَحَ منه –، فأدخله إليه ، وقال : « فِيمَ تهش إليه من التجارة ؟ » ، فقال : « فى صناعة الأنماط (٥) ، فإنها صناعةُ أسلافنا ، ومَنْ بها يَعْرِف حُقُوقَنا » . فدعا برجُل منهم حَسَنِ اليسار ، فأخرج إليه الألف الدينار التى أخذها ، فقال : « هذا

---

(١) يقرح قلبه : يجرحه ويملأه قروحًا . (ش) .

(٢) التزليل : حمل الطعام من الوليمة عند الانصراف عنها . (ش) .

(٣) الصنيع : الوليمة . (ش) .

(٤) صدق عنه : أخرج صدقة . (ش) .

(٥) الأنماط : جمع نمط ، وهى ضرب من البسط له خمل رقيق . (ش) .

المالُ لهذا الفتى ، فليكن فى دُكانك ، واشترِ له بها ما يُصلحه من المَتَاع وبصِّرْه به » ، ثم قال للفتى : « احذر أن تُنْفِق إلا من رِبْح » . فانصرف الفتى ، وقد رُدَّ عليه سَتْرُه » .

فحلَف لى أحمد بن أيمن : « أنَّ بضاعته تَثَمَّرت [١] ، وأرباحَه اتّصلت ، وعامَلَ السلطان ، ودخل فى جُمْلة التّجار وجِلَّتهم » .

* * *

أبو يوسف القاضى والغنوى

٥٧ – وحدثنى أحمد بن أبى عمران ، عن مسلم بن أبى عُقبة ، عن أبيه عقبة ، – وكان عقبةُ هذا مصادقًا لأبى يوسف القاضى وتِربًا له [٢] – ، قال :

« كان أبو يوسف قد انقطع إلى أنحاءِ الفِقْه [٣] ، فأحسنَ القولَ عن أبى حنيفة ؛ وكانت زيادته فى العلم ، بمقدار نقصانه فى الرزق . وكان كل من يستعرضُ حاله بالكوفة ، يشير عليه [بالرِّحْلةِ] إلى بغداد . ويرى أبو يوسف صوابَ مايُشار به عليه ، فَيُقْعِدُه نقصانُ حاله عن المركب الفارِه [٤] ، واللّبسة التى تُشْبه من حلَّ محلَّه من العلم ، ونُزِع إليه من أقصى النواحى [٥] .

« وكان له غلام كان لأبيه ، حاذقٌ بعمل الجَواشن والدُّروع وكثيرٍ مما يحتاج إليه من آلة الحرب [٦] ، وكان يأتيه فى كلّ شهر بما يقوته فى حاضرةِ الكُوفة ، ولا يُعينه على حَضْرة السلطان . فرغب فى الغلام عامل للمهدىِّ على الكوفة – قد ذهب عنِّى اسمه –، فطلبَه من أبى يوسف – وهو يومئذ من أصاغِر رَعَاياه –، فباعه منه بتسعين دينارًا .

« وخرج عند ذلك إلى بغداد ، فارتاد دابَّةً وثيابًا .

---

(١) تثمرت : نمت وكثرت ثمرتها وأرباحها . (ش) .
(٢) ترب المرأة : هى صاحبتها التى ولدت معها ، وأما الرجل فهو « لدته وسنه » . (ش) .
(٣) أنحاء الفقه : وجوهه وأبوابه ونواحيه . (ش) .
(٤) الفاره : النشيط الحادّ القوىّ من الدواب . (ش) .
(٥) نزع إليه : قصد من بعد . (ش) .
(٦) الجواشن : جمع جوشن : درع وزرد يلبسه الصدر والحيزوم من العنق . (ش) .

« وكان لعبد الله بن القاسم الغَنَوِىّ – أحدِ أصحاب الأَعْمشَ [١] – محلٌّ من المهدىّ ، ولم يكن فى المجالسِ التى تنعقد ببغداد فى الفِقْه أجل من مجلسه . فدَخَل أبو يوسف مع كافَّة من دخل ، مِنْ غير تسليم على عبد الله ، ولا مُقَدِّمة لحضور مجلسه . وكان أبو يوسف حَسَنَ الصورة ، جميلَ الإشارة ، لطيفَ التخلُّص والاحتجاج ، فقَبِله قلبُ عبد الله ولم يعرفه .

« وجرت مسائلُ وأجوبةٌ ، كان حظُّ القياس فيها مقصِّرًا ، وكان الاحتجاج على ظاهِر القول . فتكلم أبو يوسف فيها فأَحسن الاحتجاج وجوَّد ، وأعانه على هذا طُولُ لِسانه وحُسْنُ بيانه ، ثم سألهم فقصَّروا عن الجوابِ ، فأبان عنه لهُمْ برفق . فلما تقضّى المجلس عاتبه عبد الله على تخلّفه عنه وتعريفِه مكانَه ، وسأله أين نَزَل ، فأخبره ، فرغب له عن الموضع الذى سكنه ، ودعاه إلى منزلٍ بالقرب منه ، وقرَّر خبره عند أبى عبيد الله كاتب المهدى ، فوصله بالمهدىّ وأسْنَى رزقه [٢] ؛ ثم قَرَنه بالهادى فأقام معه مُدَّة أيامه ؛ وبلغ مع الرشيد مالم يبلغْهُ عالم بعلمه ، ولا محبوبٌ بمرتبته » .

* * *

٥٨ – وحدَّثنى على بن سند – وكان انقطاعه فى أيام الموفَّق والمعتضد [٣] إلى أحمد بن محمد بن بسطام ، وكان آل عُبَيد الله بن وهب يَحْقِدُون [عليه] سوالِفَ مُنْكَرَةً ، ولم يكن مع عُبَيْد الله من سوء المباداة [٤] مامع القاسم ٱبنِه [٥] . فلما حُبس أحمد بن محمد بن بسطام ، قُبِض علينا معاشرَ خلفائه فى الأعمال ،

---

(١) هو أبو محمد سليمان بن مهران الكوفى ، الإمام المشهور ، كان ثقة عالما فاضلا . توفى سنة ١٤٨ هـ . ابن خلكان ج ٢ ص ٤٠٠ .

(٢) أسناه : جعله سنيًا أى رفيعا عظيما . (ش) .

(٣) هو أبو العباس أحمد بن الموفق بالله أحد الخلفاء العباسيين . توفى ببغداد سنة ٢٨٩ هـ . السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٤٢٧ .

(٤) باداه مباداة : أظهر له مافى نفسه من عداوة أو غيرها . (ش) .

(٥) انظر فى القاسم : ابن خلكان ج ٣ ص ٣٦١

وأُثْبِتْنا فى جَرِيدةٍ [١] ، وتُقدِّم بإحضارنا إلى داره ، فيئسنا من الحياة – ، وقال لى علىُّ بن سندٍ :

« فلم يكُن فى جماعتِنا أضعفُ حالا منى ولا أقلُّ ناصرًا ، فرأيت الموتَ . وحُمِلنا إليه ، وقد أحْضَر الجلّادين والسّيَاط والموكّلين بالمعابر [٢] ، قال : فقُدِّم منا رجلٌ من جِلّة أصحاب أحمد بن بسطام فضُرب ، وأُخذ خطُّه بما أعلم أنه لا تصلُ إليه يدُه . وبين يديه رجل ظهرُه إلينا لا نعرفه ، فلما فرغ [من] أمره ، سمعت الذى بين يديه وهو يقول : « هَنِّئْنى عارفتَك ! » ، فقال : « ذَرْهُ ! حتى يرى عِظَم ماسلم منه بكَ » ، فقال : « هو يراه غدًا » ، فقال القاسم : « سلّموا علىَّ ابن سند – لا رعاه الله ! – إلى صاحبه أبى الجيش ثَابت » ، فرأيته وقد قبَّل يده ، ورُدَّت علىَّ الحياة بشفاعته ، وأُطْلِقْتُ من غير مصادره ولا عقوبة [٣] .

« فلما رجع ثابتٌ إلى مكانِه ، وصار بى رسولُ القاسم إليه ، قال لى : « مرَّ بىَ اسمُك فى الجريدِة فاستوهبتُك ، لأنّ أباك كان من إخوانى » . فجزَّيتُه الخيرَ على رِعايته والدِى ، فِىَّ .

* * *

محمد الغورى ولص

٥٩ – وحدثنى محمد بن صالح الغُورِىّ ، قال :

« كانت لى بضاعة أعود بفَضْلها على شملى ، فأفترقتُ فى معاملاتٍ فى الصَّعيد ، وخرجتُ إلى من عاملته فجمعتها ، وكان مقدارها خمس مائة دينار . وخرجت أريد الفسطاط فى رُفْقَة كثيرةِ الجمع ، فلما كان مُنْتَصفُ طريقِنا ، وافَى جمعٌ من الصَّعاليك فسلبَ الناسَ جميعًا . ودَهِشْتُ [٤] ، فرأيتُ منهم شابًا حَسَنَ الصورة ، فقلت له : « والله ما أملك غير هذا الكِيس ، فارفعه لى عندك ! » ،

---

(١) الجريدة : ورقة تجرّد فيها الأسماء وتكتب (كشف بيان) . (ش) .

(٢) المعابر : هكذا بالأصل ، ولا أدرى ماهو ، ولعله يريد بعض آلات التعذيب . (ش) وفى هامش ج : « بالمعابر : جمع معبر كمنبر ، وهو ماعبر به النهر (القارب) ولعلهم كانوا بعد تعذيب المحكوم عليهم يقذفونهم فى النهر ، ويجوز أنها محرفة عن المقابر أى إنهم كانوا يحضرون أصحاب المقابر لدفن من يموت بالتعذيب » .

(٣) المصادرة : توثيق الاتفاق على مال يدفع يفترق على أدائه أحد الطرفين . (ش) .

(٤) دهش : تحير واضطرب . (ش) .

فقال : « وأين بيتُك بالفسطاط ؟ » ، فقلت : « فى دور عَبَّاس بن وليد » ، فقال : « ما اسمك ؟ » ، قلت : « محمد الغورىّ » ، قال : « امضِ لشأنك » . وجَاءَ منهم من قلَّع ثِيابى وسراوِيلى ، وانصرفُوا عنا . ولم أزد أن سوَّغتُ واحدًا منهم جميع ماكان معى [١] ، ودخلنا إلى الفسطاط ونحن فقراء . فرجع كل واحد منهم إلى ماتخلَّف لَهُ ، وبقيت ليس معى درهم أُنْفِقُه .

« وإنى لجالس على درجة المسجد بين المغرب وعشاء الآخرة ، حتى رأيتُ رجلا قد وقَفَ بى ، فقال لى : « هاهنا منزل محمد الغورىّ ؟ » ، قلتُ : « أنا هو ! » ، ولا والله ! ما اهتديتُ إلى الرجل الذى أَعطيته المالَ ، لأنه كان عندى أوَّلَ مالٍ ذاهبٍ ، فقال لى : « عَنَّيْتَنى ! » [٢] ، وأخرج الكيس فدفعه إلىّ ، فرُدَّتْ علىَّ جِدّتى وتَطَعّمتُ الحياةَ [٣] .

وكان بالقرب منّا قائد يُعرَف بابن قَرَا ، كنتُ مُعامِلا له وكان له محلٌّ [٤] ، فسألت اللصّ المَبيتَ عندى ففَعَل . فأصبحت وصرتُ إلى ابن قَرا وقصصت عليه قصَّة الرجل ، فقال لى : « الطُفْ لِى فيه ، فوالله لأُنَوِّهَنّ بِاسمِه ، ولأُكَافِئَنَّه عنك » . فرجعت إليه فأخبرته ، فوالله ماآرتاع ولا اضْطرب ، ومَضَى معى ؛ فأحسن تلقِّيه ، وخلَع عليه ، وصيَّره سِيارةً لعَمَله [٥] ، وضمّ إليه عِدَّة وافرة . ولم يزل فى حَيِّزه إلى أن تُوُفِّىَ » .

* * *

مصقلة ومعن ابن زائدة

٦٠ - حدثنى أحمد بن أبى يعقوب ، عن أبيه ، عن جَده واضح ، قال : « كانت بين المهدى وأخيه جعفر بن أبى جعفر عداوةٌ فى أيام المنصور ، وكان مَصْقَلة بن حبيب يَنْقل عنه إلى جعفر مايكره ، ولا يُمْكِنُ المهدىَّ أن يسطُوَ

---

(١) سوغه : أعطاه له سائغًا سهلا . (ش) .
(٢) عنيتنى : أتعبتنى . (ش) .
(٣) الجدة : الوفر والغنى ، وتطعم الشئ : ذاقه وتمتع به . (ش) .
(٤) يريد : كان له محل رفيع ومكانة . (ش) .
(٥) وردت هذه الكلمة قبل وفى هامش ج : « سيارة : مصدر سار ، يدل على حرفة ، ويظهر أن المراد به حسن السير بالبلد أو العمل ، وقد كان ذلك عملا من أعمال الشرطة ، وأطلقه هنا على العامل نفسه » . ولست أحقق معناها ، وهى على كل حال : عمل من أعمال الدولة فى ذلك العصر . (ش) .

على مصقلة ولا يمسَّهُ بسوءٍ . فلمّا تولى الخلافة نَذَر دمه ، فاختفى . فحدثنى مَصْقلة أنه نَبَابِه موضعُه الذى كان به ، فخرج مستترا يريد غَيْرَه ، فلحقه رجل من أعدائِه وصاح فى أصحاب الأرْباع [١] ، « هذا بُغْيَة أمير المؤمنين ! » ، : « فتسرَّعَ إلىّ الشُّرَط ورأيتُ الموت عِيانًا . فبينا أنا فى أيديهم ، ٱجتَاز بى معن بن زائدة ، فصحت به : « ياسيدى ! يا أبا المنذر ! أجرنى أجارَك الله ! » ، فقال للشُّرَط والرجلِ المتشبِّثِ بى : « خلُّوا عنه » ، فقال الرجل : « ماذا أقول لأمير المؤمنين؟ » ، قال : « تقول له إنَّه عندى » ، ثم أمَر بحملى على جَنيبةٍ من جنائبه [٢] ، وسار بى إلى منزله ، وقُدِّم طعامُه فأكلت معه ومع وَلَده . فلمّا فرغنا من الطعام قيل له : « وافى رسولُ أمير المؤمنين ! » ، فقال لولده : « ٱقْضوا حقِّى عليكم بألّا تُسَلِّموا مَصْقَلة ، فقد ٱستجارَ بى ! » . فحلفوا له على ذلك ، وركب .

« فلما رآه المهدى قال : « تُجيرُ علىّ يامَعْن ؟ » ، قال : « نعم يا أمير المؤمنين ! » ، قال : « ونعم أيضًا ؟ » ، قال : « يا أمير المؤمنين ! قَتَلْتُ فى دَوْلتك زُهاء ثلاثين ألف عدوٍّ ، ولا أستحق أن أُجيرَ فيها عدوّا واحدًا ! » ، قال : « نعم تستحقُّ ذلك ، قد وهبناك دمَه » ، فقال : « يا أَمير المؤمنين ! ليس هكذا يُنْعِمُ مثلُك بالحياة ! إذا تصدّقت على أحدٍ بحياته فاجعلْها فى خفضِ عَيْشٍ من نِعْمَتِك [٣] » . قال : « يُعْطى ألفَ دينار » ، قال : « يا أمير المؤمنين ! لا تستَوِى جائزتُك وجائزةُ عبدك مَعْن ! هذا ماسمحت له به » ، فقال : « ٱدفعوا إلى جار معنٍ ألفىْ دينار » . فحُمِلَتْ معى إلى منزلى ثلاثة آلاف دينار ، وأمنتُ على نفسى » .

* * *

---

(١) أصحاب الأرباع : هم فيما نستظهر من بعض النصوص ، الذين يتولون مراقبة المسافرين ، والنظر فى أحوالهم ، ويكون لهم حق حبس الداخلين إلى المدينة عن دخولها ، والأرباع هناهى النواحى : أى نواحى المدينة ومداخلها . (ش) .

(٢) الجنيبة : هى الناقة التى يحمل عليها الطعام والميرة ، والجمع جنائب . (ش) .

(٣) الخفض : السعة والدعة واللين فى العيش . (ش) .

أولاد ابن طولون
وابن أخيهم

٦١ - وحدثنى رَبيعة بن أحمد بن طولون [١] ، قال :

« لما توفى خُمَارويه ، قَبَضَ علىّ - وعلى مُضَر وشَيْبان [٢] ابنى أحمد بن طولون - جَيْشُ [٣] بن خُمَارويه ، وحُبِسْنا بدمشق . فلمّا قَفَل إلى مصر ، حبسنا فى حُجرة من الميدان معه . وكانت لنا فى كل يوم مائدةٌ نجتمع عليها ، وكان فى الحجرة رِوَاق وبيتان ، وجُلوسنا فى الرِّوَاق . فوافى خَدَمٌ له ، فأدخلوا أخانا مُضر فى البيت وأغلقوا عليه الباب ، فانفَصَل عنا وكانت المائدة تُقَدّمُ إلينا ، ونُمْنَع أن نُلْقِيَ إليه منها شيئًا ، فأقام خمسة أيام لا يَطْعَم ولا يَستغيث . ثمّ وافانا ثلاثة من أصحاب جَيْش ، فقالوا : « مامات أخوكم بعدُ ؟ » ، فقلنا : « مانسمع له حِسا ! » ، ففتحوا الباب فوجدوه حيًّا ، ورامَ القيامَ فلم يصل إليه ، ورماه الثلاثة بثلاثة أسهم فى مقاتله فَطَفِئَ [٤] . وكانت الليلة التى دخلوا فيها ليلة جمعة ، وأخرجُوه وأغلقوا البابَ علينا .

« وأقمنا يومَ الجمعة والسبتَ لم يقدّم إلينا طعامٌ ، فظنَنّا أنهم يسلُكُونَ بنا طريقَه . فلمّا كان يوم الأحد ، سمعنا رجَّةً فى الدار وفُتِح باب الحجرة ، وأُدخل إلينا جيش بن خُمَارويه ، فقلنا : « ماخبرك فقال : « غلب أخى على أمرى » ، وتولى إمارة البلد هارون بن خُمَارويه » [٥] فقلنا : الحمدُ لله الذى قَبَضَ يَدَك ، وأضْرَع خدَّك [٦] » ، فقال : « ماكان عزمى إلّا أنْ أُلحِقَكما بأخيكما » . وأنفَذ

---

(١) نفى إلى الإسكندرية حينما ولى هارون بن خمارويه ، ثم كاتبه أهل مصر ودعوه إلى الولاية فلما وصل إلى الجبل المقطم خرج إليه نفر من القواد فناوشوه الحرب ، ثم اعتقل وضرب بالسياط حتى مات سنة ٢٨٤ هـ . الكندى : الولاة ص ٢٦٦

(٢) ولى مصر بعد قتل هارون بن خمارويه سنة ٢٩٢ وهو آخر من وليها من الطولونيين . الكندى الولاة ص ٢٧٠

(٣) ولى مصر سنة ٢٨٢ بعد قتل خمارويه ثم قتل سنة ٢٨٣ . الكندى : الولاة ص ٢٦٥

(٤) طفئ الرجل : خمد وهمد وانطفأ لهب حياته . (ش) .

(٥) ولى مصر سنة ٢٨٣ وكان سئ السيرة ، قتله عماه شيبان وعدى سنة ٢٩٢ . الكندى : الولاة ص ٢٦٦ فما بعدها .

(٦) أضرعه : أذله وأخضعه . (ش) .

إلى جماعتنا مائدةً ، فلمّا طَعِمْنا بَعث إلينا خادمًا : « إنّ جيشًا كان قد عَزم على قتلكما كما قتل أخاكما ، فاقتلاه وخُذا بثأركما منه ، وٱنصرِفا على أمانٍ » ، وبعث إلينا خدَما ، فتسرَّعوا إليه فقُتِل . وٱنصرفنا إلى منازلنا وقد كُفِينا عَدوّنا » .

* * *

أحد ملوك الهند وتاجر

٦٢ – وحدّثنى منصور بن إسماعيل [١] الفقيه ، قال :

« خرج رجل نعرفه بتجارةٍ ، قَصْدُه إلى الهند ؛ فرجع إلينا بأنواع من الطِّيب كثيرةٍ لها قيمةٌ خطيرة ، وهو فى نهاية السُّرور ، فقلنا له : « كم ربحتَ فى التّجارة التى خرجت بها من عندنا ؟ » ، فقال : « غرقتُ وسائرُ من كان معى ، فسلمتُ بحُشاشة نفسى فى جزيرة من جزائر الهند ، فتلقّانى قوم فيها وجاءوا بى إلى ملكهم فقال لى : « قد نَفِدت الموهبةُ الخارجةُ عنك ، فما معك من الموهبةِ الثابتة عليك ؟ » ، قلت : « معى الكتابُ والحسابُ » ، فقال الملك : « مابقى لك ، أفضل من الذى ذهب منك ، والصوابُ أن تعلّم ٱبنى الكتابَ بالعربيّة والحسابَ ، فأرجو أن نُعوِّضك أكثر مما [فقدته] » ، وسلَّم إلىَّ من ٱبنَه : أذكى صَبِيٍّ وأَلْطَفَه ، فتعلَّم فى مدة يسيرة مايتعلَّمه غيرُه فى مدة طويلة .

فلمّا رأى أنه قد توَجّه وٱستحققتُ منه الإحسان [٢] ، صار إلىَّ صاحبُ الملك فقال : معى هديَّة من الملك إليك ، وأدخل إلىَّ بقَرة فتِيّةً ، ثم قال : « أدفعها لك إلى الراعى ؟ » ، فقلت : « افعل » ، وصغُرَ فى عينى أمرُ الملك على عظم شأنه . فما مضى زمنٌ قصير حتى جاء الراعى فقال : « ماتت البقرة ! » ، واستقبلنى كلُّ خاصَّة الملك بالتغمُّم [٣] . ثم ظهر فى ٱبنه تَزَيُّدٌ [٤] ، فبعثَ إلىَّ ببقرة فتية أخرى فردَدْتها إلى الراعى ، فما مضت مدّة يسيرة حتى وَافَى يبشِّرُنى فقال : « قد حملت

---

(١) هو أبو الحسن منصور بن إسماعيل بن عمر التميمى المصرى . كان فقيها جليل القدر ، متصرفا فى كل علم ، لم يكن فى زمانه مثله بمصر . توفى سنة ٣٠٦ هـ . ابن خلكان ج ٥ ص ٢٨٩

(٢) توجه : أى قصد الوجه الصحيح . (ش) .

(٣) تغمم : أظهر الغم والهم . (ش) .

(٤) تزيد : يريد زيادة فى العلم (ش) .

البقرة ! » . فلما انتهى حملُها وَضَعَتْ فهنَّأنى حاشية الملك بأسْرهم . ثم جلس الملك مجلسًا عامًا ، وأحضر التجارة التى رأيتموها معى ، ثم قال :

« لم يذهب علىَّ مايجبُ لك فى تعليم ابنى ، ولم أبعث بالبقرة الأولى لفضل البَقَرة عندى ، ولكن نزلت بك محنةٌ فى البحر أتَتْ على مالِك ، فامتحنت بالبقرة ما أنتَ عليهِ منها . وعلمتُ أنى لو أعطيتُك جميعَ ماملكتْ يدِى - وقد بقى منها شئٌ - لضاع منك وهَلَك لديك . فلما أُخْبِرت أنها ماتت علمت أنَّك فيها [١] . ثم ٱمتحنت أمرك بالبقرة الثانية ، فلما أخبرت أنَّها قد حملت علمت أنها قد ٱنحسَرَتْ عنك ، فسُرِرت لك بذلك ، وٱستظهرت بانتظارِ الوِلادة . فلمّا ولدتْ شخصًا كاملا صحيحَ الأعضاء ، علمتُ أنك قد فارقت محنتك . وهذا ما أعددته لك ! » . ثم وَصَلنى بطِيب قوَّمته عشرين ألف دينار ، وحملنى فى البَرِّ فسلمتُ ، وزاد بأرض العرب ثمنه على ما قوَّمْتُه » .

قال منصور : « فرأيته قد أيْسَر بعد الخَلَّة والتلفيق فى المعاش [٢] ! » .

* * *

الفضل بن يحيى وشامى

٦٣ - وحدثنى أبو محمد يحيى بن الفضل ، قال :

« اختفى عند والدى كاتبٌ للفضل [٣] بن يحيى بن برمك عند إيقاعِ الرشيد بهم ، وكان يُواصل البكاءَ عليهم ، ولا يسمع الوَعْظَ فيهم ، فقال له أبى : « أنا أرجو أن يُخلِفَ الله عليك ولا يُضيعك » ، فقال : « والله مابُكائى لما فاتنى منهم ، وإنما بكائى لجلالة أخطارِهم ونَفَاسة أقدارِهم ، ولقد كان لصاحبى فى الجمعة السالفة مالم أسمع بمثله لقديمٍ ولا حديثٍ ، قال لى : « قد كثُر الزوَّارُ علينا [٤] ، فٱنظُر

---

(١) قوله : « علمت أنك فيها » : أى أن شؤمك ومحنتك متلبسة بها (ش) .

(٢) أيسر : غنى بعد شدة وعسر . والخلة : الفقر (ش) .

(٣) هو أبو العباس الفضل بن يحيى بن خالد البرمكى وزير الرشيد العباسى قبض عليه فى فتنة البرامكة وسجن إلى أن توفى فى سجنه سنة ١٩٣ هـ . ابن خلكان ج ٤ ص ٢٧

(٤) الزوّار : هم العفاة والمجتدون وطالبو المعروف ، وكانوا يسمون « السؤال » ، فسماهم البرامكة « الزوّار » إكرامًا لهم عن شناعة اسم السؤال (ش) .

مقدارَ من ٱنصرف ، وٱرفع إلىَّ عِدَّة من بقى من الزوّار لأتقدَّم فى بِرِّهم ؛ وٱحذر أن ترْفَع إلىَّ رجلًا من أهل الشام » - ، لأنه كان يتشيّع [١] .

« فخرجتُ فألفيت من فَضَل عن المنصرفين أربعة وثلاثين رجلا . وجاءنى رجلٌ من أهل الشام كاملُ الأدب ظريف الشّاهد [٢] ، فأعلمه ماتُقُدِّم به إلىّ ، فقال : « يا أخى أسألك أن تُغالط بى وتثبتنى فى وسط الجريدة » ، ففعلتُ ذلك . فنظر إلى الأسماء ثم قال : « ألم أتقدّم إليك أن لايكون فى الجريدة شَامِىٌّ ؟ » ، فقلت : « وأين الشامى ؟ » . فوضع - شَهِد الله - يدَهُ على ٱسمه وحَلَّق [٣] ، ووقَّع بيده لكل واحد غيرِ الشّامى ، فما قصّر بأحدٍ عن مائة دينار ، وأمرنى بإطلاقها وإنفاقِها فيهم . فجلستُ أفرِّقها ، ووافَى إلىّ الشامى ، فأريته ٱسمَه خاليًا وحدّثته حديثَه ، فقال : « لو قُضِى شئ لكانَ ، وأحسن الله جزاءَك على ما قدّمته من العنايةِ بى » ، وٱنصرف وقد غَمّنى أمره ، ولم يبق فى الزوّار أحد حتى أَخَذ .

« فأنا فى منزلى قريبًا من نصف الليل ، حتى وافانى رسوله ، فصرت إليه ، فقال : « أوَيْتُ الساعة إلى فِرَاشى ، واستعرضتُ بفكرِى شُغْل الزوّارِ وما أمرتُ به لهم ، فحسُنَ عندى ، ثم قبَّحه فى عينى حِرْمانُ الشامىّ المِسكين ، ورأيته نقْصًا فى مُرُوّتِى ، فتقدّم فى دفع مقدارِ ماوصل إلى جماعةِ الزوّار إليه » ، فقلت : « ياسيدى ! وصل إلى جماعة الزوّار خمسة عشر ألف دِينار ، وهذا يكفيه ألف دينار ! » ، فقال: « والله ماتفى ألف دينار بغَمّه وقد رأى غيرَه يأخذ وقيامه عنك محرومًا ، قُمْ فٱدفع إليه الخمسة عشر ألف ولا تَعْذُلْنى ، فالخطأ فى الجميلِ أحسنُ من الصّواب فى القبيح ، وليس يَشْكُر الناسُ من البرِّ إلّا ما أفرط ، فأمّا مابَلَّغ الحاجةَ فمنسىٌّ عند أكثرهم ، والواجب على من آثر جميلَ الذكر أن يَتَغَنَّمَ أيامه [٤] ، ولا يسوِّفَ بشئ من فعله » .

---

(١) يتشيع : يتعصب لشيعة على رضى الله عنه وأهل بيته (ش) .

(٢) ظريف الشاهد : ظريف اللسان (ش) .

(٣) حلق : أدار حلقة دائرة على الاسم (ش) .

(٤) يتغنم الشئ : يغتنم وينتهز (ش) .

قال أبو محمد : « فبكَى والله أبى عند هذا الفصلِ من حديثِه حتى خفتُ عليه ، وقال : « ما أجهلَ الناس بقدرِ مافقدوه من هذا الرّجل ! » .

قال الكاتب : « فخرجتُ وَبَثَثْتُ الرُسُلَ فى طلب الشامىّ حتى وجدوه ، فوافانى وقد انحطّ أكثرُ لحمِه فى يومٍ واحد ، فقصصتُ عليه القّصة ، فحمد الله وأثْنى عليه وشَكَرَنا جميعًا ، وقَبض المالَ وٱنصرف على أحسن حال » .

* * *

والد المؤلف وابن المدبر

٦٤ – وسمعتُ يوسف بن إبراهيم والدى ، وهو يقول :

« كانت بينى وبين أحمد بن محمد بن مُدَبّر سَوَالفُ تُرْعَى ويُحَافظ عليها ، فلمّا تولى مصرَ رأى حُسْنَ ظاهرى ، فظنّ ذلك عن أموالٍ جمّةٍ لدىّ ، فجدّ بى فى المطالبة ، وأخرج علىّ بقايا لعقودٍ انكسرت من آفات عَرَضَتْ لِضياعها ، ولم يسمع الاحتجاج فيها ، وٱستقصر ما أوردته ، و[ظنّه] إنما كان عن حيلةٍ ، فاحتبَسنى مع المتضمِّنين . فكان يَغْدُو فى كلّ يوم غلامٌ له يحجُبه يُعْرف بفَضْل ، فيكتبُ على كل رجل ما يؤدِّيه فى يومه ، فإن شَكا أنه لا يَصِل إلى شئ ، أخرجه فحُمِّلَتْ عليه الحجارة ، وطُولِبَ أعنفَ مُطالبة .

« فلم يزلْ بى إلحاحه حتى بعثُ حُصُرَ دارى فضلا عما فيها ، وعرضْتُ دارى فَمَنعَنى من بيعها ، ووَجَّه إلىّ : « فأين يكون حُرَمُك ؟ » . فوافانى كاتبى فى يوم من الأيام فقال لى : « يشهدُ الله أنّا مانَصِلُ لك اليوم إلى مايُقِيمُك ، فضلًا عن شَئ تؤدِّيه ! » .

وأمسك فضل غلامُه عن الدخول فى ذلك اليومِ علينا ، وتعرُّفِ مايؤدِّيه كل واحد منا . فلما صلَّيت الظهر من ذلك اليوم أنفذَ إلىّ توقيعًا نُسْخَتُه :

« يا أبا الحسن أعزّك الله ! قد ألويتَ بما بقى عليك [1] ، وهو سبعة عشر ألف دينار ، وآثرنا صيانتَك عن خُطّةِ المطالبة هذه المدة ، فإن أَزَحْتَ العِلَّة فيها ،

---

(١) ألوى ولوى الدين : مطله وتأخر بالعلل عن قضائه (ش) .

وإلّا سَلَّمناك إلى أبى الفوارس مُزَاحم بن خاقان [١] أيّدَهُ الله ، وسبَّبت به عليك لأصحابه [٢] » .

« فكتبت إليه رُقعة أحلفُ فيها : « إني ما أملك عَدَد هذا المال حبّ حِنْطَةٍ : ولو كان لى شئ لصُنْتُ به نفسى ! فإن رأى السيِّد رعاية السالِف بينى وبينه وسَتْرَ مُخلَّفِيَّ ، كان أهلا لما يأتيه ، وإن سلَّمنى إلى هذا الرجل رَجوت من الله عز وجل مالا يخطئ مَن رَجاه » .

« فرجع إليّ بعضُ غلمانه ومعه رقعة مختومة ، فاستركبنى . وسارَ بى إلى مُزَاحم ، فلما قُرِئت عليه الرقعةُ أدخلنى إليه ، وعنده كاتب له يعرف بالمروزى فعَرَفَنى مزاحم ولم أعرفه -: وكان أبوه فى الحارة التى فيها دارُ أبى بِسُرّ من رَأَى ، وربّته أمّ امرأةٍ لى تعرف بميمونة ، مولاةِ أمّ محمد بنت الرشيد ؛ ولا علم لى بشئ من هذا فقال : « أنت كاتب إبراهيم بن المهدى ؟ » ، قلت : « نعم ! أيد الله الأمير » ، قال : « كنت أراك وأنا صَبىٌّ فى حارَتِنا ، ووالله ما طَلَبَ ابن المدبّر أن يروِّج علىّ مالاً [٣] ، وإنما أراد أن أقتُلَك بالمطالبة . وقد قبلتُ التسبيب ، ورأيتُ أن أكتب إلى أمير المؤمنين أعرِّفُه رُزُوحك وقصورَ يَدِك عن هذا المال [٤] ، فإن سَهّل ، وإلّا نَجَّمَهُ علىّ وعلى رجالى حتى يُقَاضَوْا به فى كل نَجْمٍ [٥] » ، ثم قال للمروزى : « هذا رجُل من مشايخى ، وأُمُّ زوجته ببغداذ تولّت تربيتى ، وقد ٱستكتبته على أمورى وما أحتاج إلى قَبَالَته من الضِّياع بمصر [٦] ، وليس يُزِيلُك عن رسمِك [٧] » ، وأخذ خاتَمًا قد كان تُخْتَمُ به الكتُبُ بحضرته فأعطانيه .

(١) ولى مصر من قبل المعتز سنة ٢٥٣ وتوفى سنة ٢٥٤ هـ . الكندى : الولاة ص ٢٣٤

(٢) سبب عليه : أى جعله سببًا يأخذ عليه مالا من المرسل إليه كان يستحقه لديه ، ويتولى المرسل إليه استخراج المال من الرجل المسبب عليه (ش) .

(٣) روّج عليه المال : عجله له (ش) .

(٤) الرزوح : العجز والضعف والإعياء من الثقل (ش) .

(٥) النجم : الوقت المضروب لأداء المال ؛ ونجم المال : أدّاه نجوما (أقساطا) فى أوقات معلومة متتابعة مشاهرة أو مساناة (ش) .

(٦) قبالة الضياع : كفالة الرجل أموال خراجها ، واحتماله بأدائها لبيت المال . (ش) .

(٧) الرسم : هو عندهم الولاية على بعض أمر الدولة (ش) .

وسألنى عن العجوز التى رَبَّتْه ، فقلت : « هى بمصر معى ! » ، وانصرفت من عنده إلى منزلى . فكان أوَّلَ من هنَّأنى بمحلى منه ابنُ المدبِّر ، ورجعت إلى نِعْمتى معه فى مدة يسيرة » .

* * *

ابن العجمى المهندس وابنا موسى

٦٥ – وحدثنى أبو كامل شُجاع بن أَسلم الحاسب [١] ، قال : « كان إبراهيم بن الأعجمى المُهنْدس قد تقاصَرتْ يدهُ واختلَّتْ حاله ، فتكلَّم على شكْل من أشكال الهندسةِ ورَفعه إلى مَنْ أوصله إلى المأمون ، قال أبو كامل : فحدثنى سَنَد بن على [٢] فقال :

« سأل المأمونُ محمَّدَ وأحمدَ ٱبنى موسى بن شاكر المنجِّم [٣] ، عن منزلة إبراهيم بن الأعجمىّ فى الهندسة ، فقالا : « منزلة ضعيفةٌ ، وفيه عاميَّةٌ » ، فقال المأمون للسندى بن شَاهك : « أحضِرْنى إبراهيم بن الأعجمى » فلما أَحضره ووقف بين يدى المأمون ، تَهيَّبه ، فلم تبدُ منه كلمةٌ ، قال : فرأيتُ انقطاعه قد سَرَّ ٱبْنَى موسى [٤] ، وقالا للمأمون : « قد عرَّفنا أميرَ المؤمنين أنه ليس بمحلٍّ من يَدخُل إليه ، فقلت : « يا أمير المؤمنين ! لولا أنك تَبسُطُنا بمناجاتك والمواظبةِ عليها ، لكُنّا بمنزلة إبراهيم فى الانقطاع من كلامِك ؛ فأما تقصير هذين به فى الهندسة ، فإنى أُشْهد سيدى أميرَ المؤمنين أنى من بعض تلامذته ، وعليه ٱبتدأْتُ قراءةَ الهندسة ! » ، فأمر بإيصاله إليه مع خاصَّته ، وأجرى عليه ماوسعه » .

« فقلت للسندىّ : « متى قرأت الهندسة ؟ » ، فقال : « امتغضتُ والله ممَّا

---

(١) كان مصريا وكان فاضل وقته وعالم زمانه فى علوم الرياضة ، وله تلاميذ تخرجوا بعلمه ، وصنف فى هذا النوع التصانيف الجليلة . القفطى : أخبار الحكماء ص ١٤٣

(٢) المنجم المأمونى ، فاضل خبير بتسيير النجوم وعمل آلات الأرصاد . القفطى ص ١٤٠

(٣) موسى بن شاكر ، مقدم فى علم الهندسة ، وكان مشهورا فى منجمى المأمون . القفطى ص ٢٠٨

(٤) انقطع الرجل : صمت أو أعيى فلم يستطع أن يتكلم أو يعمل (ش) .

لحقه من تعسُّف هذين الرجلين (١) ، فنزَّلتُ هذا القول لأَرُدَّ به الإصْغَار عنه (٢) » ، فصلُحت حالُه ، ورجع إلى أفضل ماكان عليه » .

* * *

د وأحمد ابنى
ى وسند بن
على

٦٦ – وحدثنى [أبو كامل] شجاع بن أسلم الحاسب أيضا ، قال :

« كان محمدُ وأحمدُ ٱبنا شاكر – فى أيام المتوكل – يكيدان كلَّ من ذُكِر [بالتقدُّم] فى معرِفةٍ . فأشْخَصا سَنَد بن على إلى مدينة السلام وباعدَاه عن المتوكل . ودبَّرا على الكندىّ (٣) حتى ضربه المتوكل ، ووجّها إلى داره فأخذا كُتَبَهُ بأسْرها ، فأفرداها فى خزانة سُمّيت الكِندية ، ومكَّن هذا لهما ٱستهتارُ المتوكِّل بالآلات المتحركة (٤) .

وتقدّم إليهما فى حفْر النهرِ المعروف بالجعفرىّ ، فأسنَدَا أمرَه إلى أحمد بن كثير الفَرْغانى – الذى عمِل المِقياس الجديد بمصر ، وكانت معرفتُه أوْفَى من توفيقه ، لأنه ماتَمَّ له عمل قطّ – فغلِطَ فى فُوَّهة النهرِ وجعلها أخفض من سائره ، فصار مايغمُر الفوَّهةَ لا يغمُرُ سائرَه ، فدافع محمد وأحمد ٱبنا شاكر فى أمره . وٱقتضاهما المتوكل ، فسُعِى بهما إليه فيه . فأنفذَ مستحِثًّا فى إحضار سَنَد بن على من مدينة السلام ، فوافَى .

فلما تحقق محمد وأحمد ٱبنا شاكر أنّ سندًا قد شَخَصَ ، أيقنا بالهلكة ويَئِسا من رَوْح الحياة .

فدعا المتوكل سَنَدًا وقال [له] : ماترك هذان الرَّدِيئانِ شيئًا من سُوء القولِ إلا وقد ذَكَراك عندى بِه ، وقد أتلفا جُمْلةً من مالى فى هذا النهر ، فٱخرج إليه حتى تتأمَّلَه وتُخْبِرَنى بالغَلَطِ فيه ، فإنى قد آليتُ على نفسى – إن كان الأمر على

---

(١) امتعض : شق عليه الأمر وعظم فتوجع منه (ش) .

(٢) نزّل القول : وضعه وادعاه وتقوّله كذبا ، والإصغار : التحقير (ش) .

(٣) يعقوب بن إسحاق فيلسوف العرب وأحد أبناء ملوكها . اشتهر بالتبحر فى فنون الحكمة اليونانية والفارسية والهندسية . القفطى ص ٢٤٠

(٤) الآلات المتحركة : هى آلات رصد النجوم المعروفة بالاصطرلاب (ش) .

ماوُصِف - أن أصلُبَهما على شاطئه » . وكلُّ هذا بعين محمّدٍ وأحمدَ وسَمْعِهما ، فخرج وهما معه .

« فقال محمد [بن موسى لسَنَد] : يا أبا أحمد « إن قُدْرَةَ الحرِّ تُذْهِب حَفيظتَه ، (١) وقد فزِعنا إليك فى أنفُسنا التى هى أنْفَسُ أَعْلاقنا (٢) ، وما نُنْكر أنَّا قد أسأنا ، والِاعترافُ يَهْدِمُ الاقتراف ، فتُخَلِّصُنا كيفَ شئت » .

« قال لهما : « أنتما تعلمان مابينى وبين الكِندىّ من العداوةِ والمباعَدَة ، ولكنَّ الحقَّ أولى ما اتُّبِع . أكان من الجميل ما أتيتما إليه فى أخْذِ كُتُبه ؟ والله لا ذكرتُكما [بصالحةٍ] حتى تَرُدّاها عليه ! » . فتقدّم محمدٌ بن شاكر فى حَمْل الكتب إليه ، وأَخَذَ خَطَّه باستيفائها . فوردت رُقعة الكندىّ أنه تسلّمها عن آخرها ، فقال لهما : « قد وَجَبَ لكما علىّ ذِمَامٌ بردِّ كُتُب هذا الرجل (٣) ، ولكما علىّ ذِمَامٌ بالمعرفة التى لم تَرْعَيَاها فىّ ؛ والخطأُ فى هذا النهر يستَتِرُ مُدّة أربعة أشهرٍ بزيادَة دِجْلة ، وقد أجمع الحسّاب على أنّ أمير المؤمنين لا يبلغ هذا المَدَى ، وأنا أخبره الساعةَ أنه لم يقع خطأ فى النهرِ إبقاءً على أَرْوَاحكما ، فإن صدَق المنجِّمون أفلتنا الثلاثَة ، وإن كذبوا - وجازت مدّته حتى تَنْقُصَ دجلةُ ويَنْضَب النهر - أوقع بنا ثَلاثَتَنا » .

« فشكر محمد وأحمد هذا القول منه ، واستَتَر الأمرَ واسترقَّهما (٤) به ، ودخلَ إلى المتوكل فقال [له] : « ما غلطا » ، وزادت دجلةُ ، وأجرى الماءَ فيه ، واستتر حالُ النهر ، وقتل المتوكل بعد شهر [ين] من إجرائه . وسَلِم محمّد وأحمد بعد شِدَّة الخوفِ ممّا توقّعا » .

* * *

(١) الحفيظة : الغضب المكتوم فى النفس (ش) .

(٢) الأعلاق : الذخائر النفائس (ش) .

(٣) الذمام : الذمة والعهد والحق (ش) .

(٤) استرقه : استعبده وجعله رقيقًا أو كالرقيق (ش) .

حصار اقريطش والإخلاص لله

٦٧ - وحدثنى الحسن بن مسلم الأَقْرِيطشىّ - ورأيته بعد أنْ علَتْ سِنُّه وبلغ المائة سنة ، وكان صحيحَ التمييز ، سليمَ الحواسِّ - قال :

« أَلَحَّ غزوُنا على الروم ، ونالهم منا مكروهٌ عظيم ، فوجِدَ متملِّك الروم من هذا [١] ، ونَذَر أَن يُخرِّب أَقْرِيطِشَ [٢] ولو أنفق ذخائر مملكته . فنظر إلى راهب محبوب تتعالم الروم زَهَادته ، فأنزلَه من مُتعبَّدِه ، وضمّ إِليه أكثر جُيُوشِه ، فوافى جمعٌ لم يُحِطْ بأَقرِيطِشَ مثلُه قط . ففزعنا إلى غَلَقِ الحصن [٣] ، وتسرَّع الروم إلى بناء مساكن لهم ، وخرجوا من المراكب ، وغلبونا على مِيرَةِ البلد وما يكون فى جواره [٤] . واشتدّ الحِصار ، ونَزَعَ السِّعْر ، وتحلّق المأكول [٥] ، وشاع الجَهْد [٦] .

ثم زادت المكارهُ حتى أكل الناس مامَات من البهائم جوعًا ، وأجمعوا على أن يفتحوا البابَ له ، فقال لهم شيخ : « إنى قَدْ أراكم قد حُرِمتم التوفيقَ فى قُوَّتكم وضَعْفِكم ! والصوابُ أن تَقْبلوا منى ما أُشيرُ به عليكم ! » ، قالوا : « قل » ، قال : « ٱتركوا لله قَبِيحَ مايحملُكم عليه تَظَاهُرُ النِّعْمَة والسَّلامة [٧] ، وأخلصوا له إخلاص من لا يَجِدُ فَرَجَهُ إلّا عنده ، وٱفصِلُوا صبيانكم من رجالكم ، ورجالَكُم من نسائِكم » . فلمَّا ميَّزهم هذا التمييز صاح بهم : « عِجُّوا بنا إِلى الله ! [٨] » ، فعجُّوا عَجَّةً واحدةً ، وبكى الشيخُ وبكى أكثرُ الناس . ثم قال : « عِجُّوا أُخرى، ولا تَشْتغلوا بغيرِ الله » ، فعَجُّوا عجَّةً أعظم من الأولى ، وبكى الناسُ أيضًا . ثم

---

(١) وجد من الشئ : غضب فى نفسه (ش) .

(٢) جزيرة مشهورة فى بحر الروم . ينسب إليها جماعة من العلماء . ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٢٣٦ .

(٣) غلق الحصن : أقفاله (ش) .

(٤) الميرة : الطعام والزاد (ش) .

(٥) نزع السعر : غلا ، وتحلق المأكول : هلك أو كاد كما يكون فى أيام القحط (ش) .

(٦) الجهد : المشقة والعسر من الجوع (ش) .

(٧) تظاهرت النعمة : تضاعفت وتكاثرت (ش) .

(٨) عج بالبكاء والدعاء : رفع صوته (ش) .

عَجَّ الثالثةَ وعجَّ الناسُ معه ، وقال : « تَشَرَّفوا من الحصن [١] ، فإنى أرجو أن يكون الله قد فرّج عَنّا » .

فحلف لى الحسَنُ : « إنى تشرَّفتُ مع جماعةٍ فرأيتُ الروم قد قوَّضوا [رِجالهم] ، وركبوا مراكبهم . وفُتِح بابُ الحصن ، فوجدوا قوما من بقاياهم فسألوهم عن حالهم : فقالوا : « كان عميدُ الجيش بأفضل سلامةٍ إلى اليوم ، حتَّى سمع ضجّتكم فى المدينة فوضع يدَه على قلبه وصاح : « قلبى ! قلبى ! » ، ثم طَفِئَ » [٢] . فانصرف من كان معه إلى بلد الروم . وخرجنا عن الحصن ، فوجدنا فى تلك الأبنية من القمحِ والشعيرِ ماوسع المدينةَ وأعادَ إليها خِصْبَها ، [وكُفِينا] جماعتَهم من غير قتال » .

* * *

سهل بن شنيف وابن بسطام

٦٨ - قال أبو جعفر :

« ولما غَلَبَ ٱبنُ الخليج على مِصر ونواحيها ، لم يكنْ بمصر أَسوأَ قدرةً على أَسباب أبى [علىّ] الحسينِ بن أحمد الماذرائى [٣] من أحمد بن سهل بن شُنيف ، فلم يمضِ شهور حتّى انهزم ابن الخليج وظُفِرَ به وحُمِل إلى العراق . ودخل بعد ذلك بشهور أبو العباس أحمد بن محمد بن بسطام إلى مصر متولّيًا بالأمانة على الحسين بن أحمد ، وكاشفًا لما جرى عليه أمر الضِّيَاع بعد ابن الخليج وأصحابِه .

فقرّر أبو علىٍّ أمرَ المتضمِّنين بالحضرة عند أبى العباس ، فعرّض بسهل بن شُنَيف ولم يدع سُوءًا إلّا ذكره به . فقال أبو العباس : « سيعلم مايَجْرِى عليه منّى ! » . واتصل [الخبر] بسهل بن شنيف فاستُطِير قلبُه وكَسَفَ بالُه [٤] . وأُحْضر مع جماعةٍ أَجْلَبوا من الكتَّاب مع ابن الخليج [٥] ، فلمّا دخلوا عليه كاد

---

(١) تشرف : أطل وتطلع (ش) . (٢) طفئ : انطفأت حياته وخمد (ش) .

(٣) انظر فى الماذرائى : الكندى : الولاة ص ٢٨١

(٤) استطير قلبه : ارتاع واضطرب ، وكسف باله : تغير وساء حاله (ش) .

(٥) أجلب عليه : أعان الخارجين عليه (ش) .

يقوم إلى سَهْل بن شنيف ، ثم رفعه حتى كان أقرب إليه من أخصّ أصحابه . ودعا ابنَ حُبَيش فسارَّه ، فنظر إلى سَهْل ، وقال لأبى العباس : « الأمرُ على ماوصفْت » ، ثم أطلق سهلا من ساعته إل منزله . فسأله أبو على : « هل تعرفه قبل هذا ؟ » ، فقال : « لا والله ! ولكنَّه ورَد عَلىَّ منه أشبهُ النّاس بأبِى .

وأفرخ رَوْع سَهْل بتوفيق الله ولُطْفه ، [١] وما زال حفيّا به حتَّى مات » .

* * *

المؤلف وابن بسطام

٦٩ – قال :

« وكنت قد عملتُ فى أيام ابنِ الخليج لحمايةِ ضِيَاع كانت فى يدى . فلمّا تمخّضت دولتُه اختفيتُ ونُهِبْتُ [٢] ، وخِفْتُ الإيقاع بى ، واعتور ضياعى العُمالُ [٣] ، وأضاقتْ حالى ، فاجتمع الخوفُ والفاقَةُ . فرأيتُ – بعد قدوم أبى العباس بن بِسْطام – فيما يَرَى النائم ، يوسفَ بن إبراهيم والدى ، وأنا أشكو إليه خَلَّتى وخَوْفى ، فكأنه يقول : « أنا أتكلم فى أمرك حتى تعودَ إلى محبَّتِك » . فلما أصبحتُ قصصتُ الرؤيا على من كنت مُخْتفيًا عنده ، وكان حاذقًا بالعِبَارة [٤] ، فقال : « يجرى لك فرج بذكر أبيك » .

وطلب أبو العباس بن بسطام الدُّستورات القديمةَ ليعتبر منها عَبْر الضِّياع [٥] . فأُخْرج إليه ماكان لسنة خمسين ومائتين وماقبلها ، فرأى فيها اسمَ والدى فى ضياع كثيرة ، فقال : « من هذا يوسف بن إبراهيم ؟ » فقال له أبو على : « هذا صاحب إبراهيم بن المهدى ، ورَضِيعُ المعتصم [٦] ! » ، قال أبو العباس :

---

(١) أفرخ روعه : اطمأن قلبه بعد فزع (ش) .

(٢) تمخضت : كادت أن تولد ، وقربت ولايته الأمر (ش) .

(٣) اعتوروا الضياع : تداولوها بالإيذاء والتضييق فى جباية الأموال (ش) .

(٤) العبارة : تعبير الرؤيا وتفسيرها (ش) .

(٥) اعتبر عبر الشئ : استدل على الشئ بالشئ وتدبر حسابه حتى يفهمه . والدستورات : جمع دستور ، وهى النسخ المحرّرة المكتوبة ؛ يريد دفاتر الحساب (ش) .

(٦) هو أبو إسحاق محمد بن الرشيد . كان من أعظم الخلفاء وأهيبهم ، لولا ماشان سؤدده بامتحان العلماء بخلق القرآن . توفى سنة ٢٢٧ هـ . السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٨٥

« وصاحبُ كتاب الطَّبيخ ؟ » ، قال أبو على : « نعم ! » ، قال : « فله ولدٌ ؟ » ، قال : « نعم فى ناحيتى ! » ، قال : « فُخذْلى منه كتاب الطَّبيخ ، وكتابَ أخبار إبراهيم بن المهدى ، وصِرْ به إلىّ حتى يقرأهما علىّ » ، قال : « أفْعلُ » .

وكان إسحاق بن نُصَيْر يعرف موضعى ، فقال له : « أحتاج إلى أحمد بن يوسف » ، قال : « تُؤمِّنُه ، وعلىّ إحضارُه ! » فكتب له أمانًا بخطِّه ، وحلَف فيه ألّا يَسُوءنى ولا يُطالبَنى . فخرجت إليه وأحضرتُهُ الكتابين . وفرّج الله عنى بأضعف سبب » .

* * *

قابلة أولاد خمارويه وأختها

٧٠ – وحدثتنى أُمُّ آسية – قابلةُ أولاد خُمَارويه بن طولون ، وكان لها دِينٌ ومذهب جميلٌ ، ومحلٌّ لطيفٌ من خُمَارويه . وقد تذاكرنا لُطْفَ الله عز وجَلَّ فى أرزاق عباده ، وحُسْن الدِّفاع عنهم -: أنه تزوَّجها وأُخْتَها أَخَوَانِ ، فأقبلَتْ حالُ زوج أُختها وأدْبرت حال زوجها ، قالت : وتُوفّى زوجُها بأسوإ حالة ، وخلَّف لها بناتٍ ، وتعذَّر عليها تجهيزُه من ٱختِلاله . وتُوفى زوج أختها ، وقد خلّف من العَيْن والمَساكن والأوانى لوَلَد أختها :

قالت : « فكنتُ أجاهدُ فى مَؤُنة وَلَدى ، وإذا وَقَف أمرى ، صِرْت إلى أختى فقلت : « أقرِضينى كذا وكذا » ، استحياءً من أن أقول لها : « هَبِى لى ... » . ودخل شهر رمضان ، فلمّا مضى نصفه ، اشتَهَوْا علىَّ صبيانى حَلْوًا فى العِيد ، فصرت إلى أختى فقلت لها : « أقرضينى دينارًا أعمل به للصبيان حَلْوًا فى العيد » ، فقالت : « يا أختى ! تَغيظِينى بقولك : « أقرضينى » ، وإذا قرضتُك من أين تُعْطينى ؟ أمِن غَلَّة دُورِك أو بُسْتانك [١] ؟ لو قلت : « هَبى لى » كان أحسن » . فقلت لها : « أقْضِيك من لُطْف الله تعالى الذى لا يُحْتَسَبُ ، وجُودِه الذى يأتى من حيث لا يُرْتَقَب ! » . فتضاحكت وقالت : « يا أختى ! هذا والله من المُنَى ، والمُنَى بَضائِعُ النَّوْكَى ! » [٢] . فٱنصرفتُ عنها أجرُّ رِجْلىَّ إلى منزلى .

---

(١) الغلة : الدخل الذى يغله العقار (ش) .

(٢) النوكى : جمع أنوك : وهو الأحمق الذى لاعقل له (ش) .

« وكان فى جوارنا خادم أسود لبنتِ اليتيم ٱمرأةِ خُمَارويه ، فلما بلغتُ حارتنا قال لى : « فى جوارنا ٱمرأةٌ تُطْلَق قد أوجَعَتْ قلبى [١] ٱدخلى إليها فليس لها قابلةٌ » [٢] . قالت أمّ آسية : « ووالله ما عانَيْتُ ممخوضَةً قطُّ [٣] ، فدخلت إليها ، فمسحتُ جوفَها ، وأجلستُها كما كان القوابلُ يُجْلسننى فى طَلْقِى ، فولدت من ساعتها . فلما أَمَسَك صياحُها ، جاء الخادم يسأل عنها ، فقلت : « قد وَلَدَتْ ! » ، فعجب من سُرْعة أمرها ، وظَنّ أن هذا شيئًا قد ٱعتمدته بحِذْقِ صِناعةٍ ، ولُطْفٍ فى مِهْنَةٍ . فمضى إلى سِتّه بنتِ اليتيم – وكان مُقربًا بأوّل ولدٍ حُمِل لأبى الجيش [٤] ، وقد عُرِض عليها قوابلُ استثقلتهُنّ –، فقال : « فى جِوارِنا قابلةٌ أحضرناها لمرأةٍ فى حارتنا تُطْلَق ، فوضعت يدَها على جَوْفها فسقَط ولدُها ! » ، ووصفنى بما لا يُوجد فى قُدْرة أحدٍ إلا بالله عزّ وجل ! فقالت للخادم : « إذا كان غدًا فجئنى بها » ، فأتى الغُلام ودَعانى إلى مولاته ، فأجبتُ بانشراح صدر وثقةٍ بالله تعالى . فاستخفّت رُوحى وقالت : « إلى التّمامِ تقديرِ الله تبارك وتعالى » . ثم شكت مَغَسًا تجده المُقْرِب [٥] ، فأدخلْتُ يدِى فى ثِيابها ومَسَحْت جوفَها ، وعَجَجْتُ إلى الله تعالى فى سِرِّى بتوفيقى ، وكنتُ أدعو – ومَنْ حَضَر من أهلها يَتوهَّم أنى أَرْقِى – فسكنَ ماوجدَتْهُ وتبرَّكَتْ بى . ودخل إليها خُمارَويه وقال : « ماوَجَدْتِى » فقالت : « مَغَسًا فى جوفى ، فوضعت قابلةٌ أردتُها يَدها عليه ، فزال ما أجده ! » ، وأخرجتنى إليه – وكان قريبًا من حُرَمِهِ –، فقال لى : « أرجو أن يُخَلّصها الله عز وجل ببركتك » .

قالت أم آسية : « ودخلنا فى العَشْر الأواخِرِ من شهر رَمَضَان ، وقد تمسّكتُ من الإخلاص لله عز وجل بما لا يَصِلُ إليه من ساحَ فى الجبال ، خوفًا من شماتة

---

(١) طلقت المرأة (بالبناء للمجهول) : إذا أدركها المخاض ووجع الولادة (ش) .

(٢) القابلة : هى التى تتلقى الولد من بطن أمه ، (المولدة) ، (ش) .

(٣) الممخوضة : هى الماخض ، وهى المرأة إذا ضربها الطلق ووجع الولادة (ش) .

(٤) أقربت الحامل وهى مقرب : إذا دنا ولادها (ش) .

(٥) المغس والمغص : تقطيع يأخذ فى أسفل البطن والمعى (ش) .

أُخْتى بِى . فلم تمض إلّا ثلاثةُ أيام حتّى مَخِضَت ، فأجلستُها على كُرْسِى الوِلادة – وكان مقدارُ طَلْقِها ساعتين –، فولدت ٱبنًا أسهلَ وِلادةٍ ، وأبو الجيش يقوم ويقعُد ، ويذهَبُ ويَجِئ . فلمّا ولدت – وكانت تتوقَّع من الولادة أمرًا عظيما – فلما أَلْقَتْه قالت لى : « هذا الطّلق ؟ » ، قلت : « نعم ! » فقبّلت – يَعلمُ الله – عَيْنَىَّ من الفَرَح . وصاح خُمارويه : « أخبرينى يامبارَكةُ بخبرها » ، فقلت : « وحَياةِ الأمير إنها فى عافيةٍ ، وقد ولدت غلامًا سوىَّ الخَلْق بحمدِ الله » . فوجّه إلىّ بألف دينار ، وألحّ أبو الجيش فى النَّظر إليها لفَرْط إشفاقِه عليها ، فاستوقفتُه إلى أنْ نقلتُ حَوَائج الوِلادة وقلت لها : « ياسيدتى ! ٱضحكى فى وَجـــهه كما تَرِيه[1] » . فلما دخل إليها ضحكت فى وجهه ، فتقدَّم بصدقة بمالٍ كثير عنها وعن ولده » .

وقالت لى أمُّ آسية : « لما كان يوم الأسْبوع – ووقع قبل العيد بيوم واحدٍ –، أمرت لى بخمس مائة دينار ، وحصل من أتباعها ألفُ دينار ، فحصل لى ألفان وخمس مائة دينار . وخلعت علىّ وسائرُ حَشَمِها أكثر من ثلاثِين خِلْعةً ، وحُمِل إلىّ مما أُعِدّ للعيد ثلاث موائد خاصّة . وانصرفت إلى منزلى ، فأرسلتُ إلى أُختى مائدةً ، ووافتنى مهنِّئة ، وقد تقاصرَ طُولها ، فأَرَيْتُها ماحَصَل لى من المال والخِلَع والطِّيب ، وقلت لها : « يا أختى ! أنكرتى علىّ قولى : « أقرضينى » ومن هذا كُنْتُ أقضيك . فلا تستصغرى من كان الله مادَّته ، وعليه مَدَارُ ثقتِه وتعويضِه » .

واكتسبت هذه المرأةُ بمحلّها من أبى الجيش مالا كثيرًا ، وقضت لجماعةٍ من وجوه البلد حوائجَ خطيرة .

* * *

سند بن على والمجسطى

٧١ – وحدثنى شجاع بن أسلم الحاسب ، قال : قلت لسَنَد بن علىّ : « من كان سببَك إلى المأمون ، حتى اتصلتَ به ، وكنت [فى جلسائه] من العلماء ؟ » . فقال : « أحدِّثُك به :

---

(١) كما تريه : تريد ، حين ترينه (ش) .

« كان والدى يتكسَّبُ بصناعة أحكامِ النجوم مع قومٍ من أسباب السلطان يَوَدُّونه ويحبُّونه . وتعلَّق قلبى بعد فَراغِى من قراءةِ كتاب أُقليدِس بكتاب المِجسطى [١] . وكان – فى أيام المأمون بسُوقِ الورّاقين – رجلٌ يُعرف بمعروفٍ ، يُوَرِّق هذا الكتابَ ويبيعهُ [٢] – بعد تكامُل خَطِّه وأشكالِه وتجليدِه – بعشرين دينارا فسألت والدى ٱبتياعَه لى ، فقال : « أنظِرْنى يابُنَىّ إلى أن يتهيّأ لى شئ آخُذُه [٣] ، إما من رزقٍ وإما من فضل ، وأبتاعُه لَك .

وكان لى أخٌ لا يشتهى مما [تقدمت] أنا فيه من العلم شيئًا ؛ إلّا أنه كان يخدُمُ أبى فى حوائجه والإشفاقِ عليه . فلما سَوّفنى أبى بالكتاب وطالتِ المدَّة فيه ، ركبتُ معه لأمسك دَابّته فى دخوله إلى من يدخُل إليه ، ولى إذْ ذاك سبع عشرة سَنَة . فخرج إلىّ غلمانُ من كان عنده فقالوا : « انصرف ، فقد أقام أبُوك عند مَوْلانا » . فمضيت بالدّابّة فبعتُها بسَرْجِها ولجامها بأقلّ من ثلاثين دينارًا ، ومضيت إلى معروفٍ فاشتريتُ الكتابَ بعشرين دينارًا .

وكان لى بيتٌ أخلو فيه ، وجئتُ إلى أمى فقلت لها : « قد جنيتُ عليكُمْ جنايةً » ، واقتصَصْتُ عليها القصَّة [٤] ، وحَلَفْتُ لها : إن شَحَذْت أبى علىّ حَتَّى يمنَعُنى من النّظر فى الكتاب [٥] لأخرُجَنَّ عنهم إلى أبعد غاية ، ورَدَدْت عليها فَضْلَ ثمنِ الدّابة ، وقلت لها : « أنا أُغلق بَابَ هذا المنزلِ الذى لى ، وأرضى منكم برغيفٍ يُلْقى إلىَّ كما يُلْقَى إلى المحبوسِ ، إلى أن أقرأه جميعَه » . فتَضَمَّنت لى بتسكين فَوْرَتِه ، ودخلتُ البيت وأغلقتُه من عندى . فمضى أخِى إلى والدى فى الموضع الذى كان فيه ، فأسرَّ إليه الخبر ، فتغير وجهُه ، وتلجلَجَ فى حديثه ، فقال له مَنْ كان عنده : « قد شَغَلْتَ قلبى وقلبَ مَنْ حَضَر بما ظهر

---

(١) هذان الكتابان من أشهر كتب يونان المترجمة إلى العربية ، الأول فى أصول الهندسة ، والآخر فى الهيئة (ش) .

(٢) ورّق الكتاب : نسخه وأعدّه كاملا للبيع (ش) .

(٣) أنظره : أخره وأجله (ش) .

(٤) اقتص الشئ : حكاه متتابعًا (ش) .

(٥) شحذه عليه : حرضه عليه وأغضبه (ش) .

منك ، فبحقّى عليك إلا أخبرتنا لِم ذا ؟ » ، قال فحدثته ، فقال : « هذا والله يَسُرّنا فى ولدك ؛ فاتَّعِدْ فيه بكل جميل [١] » ، ثم استحضر من إسْطَبْله بَغْلا أفرهَ من بغلِ أبى [٢] ، وسَرْجًا خيرا من سَرْجه ، وقال لأبى : « اركَبْ هذا البغلَ ، ولا تكلِّم ابنَكَ بحرفٍ » .

قال سَنَد : « وأقمت ثَلاثَ سنين كيومٍ واحدٍ ، لا يرى لى أبى صورةَ وجهٍ ، وأنا مُجِدٌّ حتى استكملتُ كتاب المجسطى . ثم خرجتُ وقد عَمِلت أشكالا مُسْتَصْعِبَاتٍ ووضعتُها فى كُمِّى . وسألت : « هل للمهندسين والحسّابِ موضعٌ يجتمعون فيه » ؛ فقيل لى : « لهم مجلس فى دارِ العباس بن سعيد الجوهرى تِرْبِ المأمون ، يجتمع فيه وجوهُ العلماء بالْهَيْئَة والهندسة » . فحضرته ، فرأيت جَـــمِيع من حضر مَشايخ ، ولم يكن فيهم حَدَثٌ غيرى ، لأنى كنت فى العشرين سنة [٣] .

« فقال العباس : « من تكون ؟ وفيمَ نَظَرتَ ؟ » فقلت : « غلام يحبُّ صناعةَ الهندسة والهيئة » ، قال : « ماقرأتَ ؟ » قلت : « أُقليدس والمجسطى » ، قال : « قراءَة إحاطة ؟ » ، قلت : « نعم » . فسألنى عن شئ مستصعِب فى كتاب المجسطى ، كان تفسيره فى الأوراق التى كانتْ فى كمِّى ، فأجبتُه . فعجب وقال « مَنْ أفادك هذا الجواب ؟ » ، قلت : « استخرجتْهُ قَرِيحَتى ، وما سمعته من غيرى ، وهو وغيرُه فيما مرَّ بى فى وَرَقٍ معى » ، قال : « هاته » . فلما رآه اغتَاظَ واضطرب ، ثم قال لبعض من بين يديه من غلمانه : « السَّفَط » [٤] ، فجئ به ، فنظر إلى خاتَمه فوجده بحاله ، ثم فَضَّه وأخرج منه كُرّاسةً فجعل يقابلُ بها الورقَ الذى كان معى ، فكان الكلامُ فيما معه أحسنَ رَصْفًا من الكلام الذى معى . والمعنى واحد .

---

(١) اتعد : يريد انتظر فيه وعده بكل جميل (ش) .

(٢) أفره ، من الفراهة : وهى نشاط الدابة وقوتها ! فهى فاره (ش) .

(٣) الحدث : الصغير السنّ (ش) .

(٤) السفط : وعاء تعبى فيه الأشياء (ش) .

« فقال : « هذا شئٌ تولَّيْتُ تبيينَه من كتاب المجسطى ، فلمَّا أحْضرتنيه توهَّمْتُ أنه سُرِق منّى ، حتى تبيَّنْت ٱختلاف اللفظين مع ٱتفّاق المعنى » . ثم أمر أن تُقطع لى أقْبية [١] ، وتُرتاد لى مِنْطَقَةٌ مُذَهَّبة [٢] ، ففُرغ من جميع ذلك فى تلك الليلة ، ودَخَل بِى إلى المأمون ، وأمَرنى بملازمته ؛ وأجرى لى أنزالًا ورِزْقًا [٣] .

* * *

شيد وطبيبه

٧٢ - وحدَّثنى أحمد بن أبى يعقوب ، قال : حدثنى أبى :

« أنَّ جبريل بن بَخْتَيْشُوعَ [٤] كان يَخْلُف الأطبّاء فى دار الرشيد وكانت به نَزَاهةٌ ، وبه فاقة شديدةٌ ، ورزقه يومئذ ثلاثمائة درهم فى كلِ شهر . فوقع الرشيدُ فى غَشْية لم يتقدَّمْها علّة ، فأجمع الأطبّاء على أنه تالفٌ ، وأُخبر ابن يختيشوع ، فقال : « ماله إلّا علاج واحد وهو أن يَحْجِموه [٥] » ؛ فقال محمد الأمين : « أخافُ أن أُخاطِربه » ؛ ثم قال « قد أيِسنْا منه ، والصواب أن نمتِحنَ هذا فيه » . فأحضروا الحجَّامَ فجمعَ الدّم فى أخْدَعَيْه وهو مُسْتَلْقٍ [٦] ؛ ثم أخرج من دمه مِحْجَمَتَيْن ، ففتح الرشيد عينيه ، واستدعى طعامَه ، وأكل ونام .

فلمّا ٱنتبه ٱقتَصَّ عليه المأمون ماجرى عليه [أمرهُ ، وأذِن] للداخلين فى تهنئته بالسلامة . فلما ٱكتملوا قال لهم : « يامعاشر الأمراءِ والأطبّاء ! إنّما ٱرتبطتكم لِحراسَةِ نفسى [٧] ، وقد حَدَث علىَّ حادثٌ لم يُغْنِ عنّى فيه بعدَ الله عزّ وجل إلّا هذا الغلام ! ونصيبُهُ منّى نَزْر ، ونصيبكم وافرٌ . فٱعدِلُوا مَيْل المملكة بأن يجْعَل له كل رجل منكم نصيبًا من إنعامى عليه وإحسانى إليه ، حتى يكون له من جماعتكم ما يُوازى ماتقدّم عليه به فى حسن الدفاع عنى » .

---

(١) أقبية : جمع قباء ، وهو ثوب تجمع أطرافه من أمام بأزرار (ش) .

(٢) المنطقة : مايدور بالبطن كالحزام (ش) .

(٣) أنزال : جمع نزل ، وهو الرزق (ش) .

(٤) هو جبريل بن بختيشوع طبيب الخليفة الرشيد ، توفى سنة ٢١٣ هـ . القفطى ص ٩٣ .

(٥) حجمه : أخذ من دمه وامتصه (ش) .

(٦٣) الأخدعان : عرقان فى جانب العنق يؤخذ منهما الدم عند الحجامة (ش) .

(٧) ارتبطه : اتخذه واستبقاه (ش) .

فتسرَّع الناس إلى جبريل فأعطوه الضّياع والدُّور والأموال . وما بَرح حتى كان أيسر مَنْ فى المملكة ، وتربَّت النعمةُ لديهِ وولدِه حتى وازت نِعم الخلفاء .

* * *

عمرو بن عثمان والرشيد

٧٣ – وحدثنى عمرو بن محمد بن عمرو بن عثمان ، عن أبيه ، عن جدّه ، قال :

« كان لى مجلس فى ديوان الإنشاء قليل الجدوى علىَّ ، وحالى حالٌ لا تنهض بما يحتاج إليه المُقْتِصد ، وقد لزمتْنى يمينٌ لا كفّارةَ لها فى تَرْكِ النّبيذ . فكان جماعة الكتّاب يجلسون ماجَلَسَ الوزير – وهو يومئذ الفضل بن الربيع –، فإذا ٱنصرف إلى منزلِه ، ٱنصرفوا إلى ماعقدوا عليه أمرَهم من الاجتماع ، وأقيمُ وَحْدى فى الديوان إلى أن يُغْلَقَ .

فبكَّرت إليه فى يوم فى الأيام ، وجاءت مَطْرة تطرَّبَ الوزير فيها إلى الشُّرْب [١] ، لتشاغل الرشيد فى دعوةٍ لزبيدة ، فلم يَبْق فى ديوان الإنشاء غيرى . فإنى لجالس حَتّى دخل إلىّ خادمٌ من خاصةَّ الرشيدِ ، فأخذ بيدى ، وأدخلنى إلى الرشيد . فلما مثلت بين يديه ، « قال ٱقرأ هذا الكتابَ ! » ، فقرأتُه ، فبيّنتُه وأعربتُه فقال : « أجِبْ عنه بين يدىّ » ، فأجبت عنه بأحسن مَعانٍ وأجود لفظٍ . فقال : « اقرأه علىّ » ، فقرأتُه ، فقال لمسرور الكبير : « ألْفَ دينار » . فجاء بها ، فقال : « ٱدفعها إليه ، وقُلْ للفضلِ يَصْرِفْ إليه ديوان الإنشاء [٢] . فهو أحقُّ به مَّمن غادره » . ثم قال لى : « خذ هذا المال ، وسأنظر لك فى الوقتِ بعد الوقت مايزيدُ فى اصطِناعى لك ، فلا يُفسِد الغنى ما أصلحتْه الفاقةُ من حُسْن ملازمتك ، واستزِدْنى أَزِدْك » .

قال عمرو : « فاجتهد الفضلُ بن الربيع [٣] أن يُشْرِك بينى وبين من كان يتولَّى

---

(١) تطرّب إلى كذا : طرب (ش) .

(٢) صرف إليه كذا : ولاه إياه (ش) .

(٣) هو أبو العباس الفضل بن الربيع بن يونس ، وزير الرشـــيد بعد عهد البرامكة ، توفى سنة ٢٠٨ هـ . ابن خلكان ج ٤ ص ٣٧

الإنشاء ، فلم يُطْلِق له الرشيد ذلك وأفردَنى [١] به ، حتى فرّقت الأيام بَيْنَنَا » .

* * *

خاتمة

مات للفلاسفة والحكماء

قال أبو جعفر قال بزرجُمهر : « الشدائدُ قبل المواهب ، تُشْبِه الجوع قبل الطعام : يَحْسُن به موقعه ، ويَلَذُّ معه تناوُلُهُ » .

وقال أفْلاطُنْ ؛ « الشدائدُ تُصلِح من النّفس بمقدار ما تُفْسِد من العيش ، والتّتَرُّف يُفْسد من النفس بمقدار مايُصْلح من العيش [٢] » .

وقال : « حافْظ على كل صديق أهدتْه إليكَ الشدائد ، والْهُ عن كلّ صديق أهدَتْه إليك النعمة » .

وقال أيضًا : « الترفُّهُ كالليل : لا تتأمّل فيه ما تُصْدِره أو تَتَناوله ، والشدة كالنهار : ترى فيها سَعْيَك وسَعْىَ غيْرِك » .

وقال أرْدشير : « الشدَّة كُحْلٌ تَرَى به مالا تراه بالنِّعْمة » .

* * *

خاتمة المؤلف لهذا الباب

ومِلاك مصلحةِ الأمرِ فى الشدة شَيْئان : أصغرهما قُوّةُ قلب صاحبِها على مايَنُوبه ، وأَعظمُهما حُسْنُ تفويضِه إلى مالكه ورازِقه .

وإذ صَمَد الرجل بفكره نحو خالقِه [٣] ، علم أنّه لم يمتحنْهُ إلا بما يُوجِب له مَثُوبة ، أو يُمَحِّصُ عنه كبيرةً [٤] ، وهو مع هذا من الله فى أرباحٍ متصلةٍ ، وفوائد متتابعة .

---

(١) أطلق له : أذن له (ش) .

(٢) التترف : الترف والترفه فى العيش (ش) .

(٣) صمد إلى كذا : قصد وتوجه ومضى إليه (ش) .

(٤) محص عنه الذنب : نقصه وأسقطه عنه (ش) .

فأما إذا اشتدّ فِكْرُه تلقاء الخَلِيقة ، كثُرَتْ رذائله ، وزاد تَصَنُّعه ، وبَرِم بمُقَامه فيما قصر عن تأمِيله ، واستطالَ من المِحَن ماعسى أنْ ينقضِيَ فى يومه ، وخاف من المكروه ما لعلّه أن يُخْطِئَه .

وإنما تصدُق المناجاةُ بين الرجل وبين ربِّه لعلمه بما فى السرائر ، وتأييده البَصَائر . وهى بين الرجل وبين أشباهه كثيرة الأذِيَّة ، خارجة عن المصلحة .

ولله تعالى رَوْح [١] يأتى عند اليأسِ منه يُصيب به من يشاء من خَلْقِهِ ، وإليه الرَّغبةُ فى تقريب الفَرَج وتسهيل الأمرِ ، والرجوع إلى أفضل ما تطاول إليه السُّؤْل ؛ وهو حسبى ونعم الوكيل .

تمّ الكتاب

والحمد لله وحده وصلاتُه على سيدنا محمد النبى وعلى آله وعترته الطاهرين وسلامُه .

* * *

---

(١) الروح : رحمة الله ، فإن الراحة كلها معه .

فهرس الأعلام

(ف)

(ق)

(ك)

(م)

(ن)

(هـ)

* * *

فهرس الكتاب

الصفحة

٢ – المكافأة على القبيح

الصفحة

٣ – حسن العقبى

الصفحة

* * *

هذا الكتاب

يُعَدّ ابن الداية من كتاب الدولة الطولونية التى حكمت مصر من سنة ٢٥٤ هـ - ٢٩٢ هـ .

وتبدو أهمية الأخبار التى وردت فى هذا الكتاب بأن جمهرة منها رواها المؤلف عن إسحاق بن إبراهيم وهو من رجال ابن طولون وكبار خاصته ، ونسيم خادم ابن طولون ، وأحمد بن أيمن كاتب أحمد بن طولون ، وأحمد بن دعيم من خاصة قواد أحمد بن طولون ، ونَعْت مولاة ابن طولون ، وغيرهم من قواد ابن طولون ومن غلمانه (رجاله) .

يضاف إلى ذلك المشاهدة والتى أشار إليها المؤلف بقوله :

وقد كتبت لك فى هذه الرسالة أخبارًا فى المكافأة على الحسن والقبيح ... مما سمعناه ممن تقدمنا وشاهدناه بعصرنا .

وكان ابن الداية من أصحاب المروءات والثراء العريض ، ولقد أغدق على من رآه تلم به كارثة أو ينزل به خطب من الخطوب .

ولعل هذا الجانب فى ابن الداية هو الذى جعله يؤلف كتابه هذا - المكافأة . وهو فى ثلاثة أقسام : قسم يدور حول مكافأة الجميل بالجميل ، وقسم يصور كيف أن مكافأة القبيح تستتبع قبيحا مثله حتى يرتدع أهل الشر والسوء ، والقسم الأخير يصور حسن العقبى .

والكتاب بذلك دعوة حارة إلى عمل الخير بضرب أمثلة من النوادر والقصص القصير .

وفوق ذلك فللكتاب قيمة تاريخية على جانب من الأهمية تمثلت فى النماذج المبثوثة فيه من قصص مصرية طولونية تدل على نواح كثيرة من النواحى الإجتماعية والاقتصادية والإدارية فى مصر فى ذلك العصر .

يضاف إلى ذلك أيضا ماورد فى ثناياه من نماذج تناولت بعض الجوانب الحضارية كالملابس والمنشآت المعمارية وسباق الخيل وما إلى ذلك .

الناشـــر

